معين بسيسو

نماذج من :

الرواية الإسرائيلية المعاصرة

نماذج من :

الرواية الإسرائيلية المعاصرة

معين بسيسو

مقدمة

ان الانعزال فى حجرة من البلاستيك ـ كما يفعل رواد الفضاء ـ وقاية من الجراثيم ، لا يمكن أن يساعد الروائيين وكتاب القصة العرب بل كل الذين يتعاملون مع الكلمة ـ على تطوير أدواتهم الفنية وتحقيق وجودهم الذاتى والعام ، خصوصا اذا كانت القضية تتعلق بذلك العدو المسربل بالحديد من رأسه حتى أخمص قدميه . فلقد كتب الكثير عن الخوذة الفولاذية للعدو وعرف الكثير أيضا أو بعض الكثير عن اقتصاده الحربى وعن مخطط السياسة التوسعية التى ينهجها ويمارس تطبيقها بأعلى أشكال القمع والتصفية . كما أن القراء العرب قد أصبحوا يلمون ـ ولو الماما يسيرا ـ بتلك الشرائح المقتطعة من هذا المجتمع أو ذاك والتى تؤلف اليوم ما يعرف بالمجتمع الاسرائيلى غير ان القليل قد كتب عن التكوين النفسى والروحى والوجدانى لذلك

العدو الذى انتصر علينا فى ثلاث معارك عــلى التوالى عام ٤٨ ، ٥٦ ، ١٩٦٧ ٠

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ، من الذى يساهم فى تكوين عقلية ذلك العـــدو الذى نواجهه ، هل هم مهندسو الخطط التكتيكيه الحربية أو البرامج الاستراتيجية ؟ والذين قادوا النصر فى ثلاث معارك وبالتالى ساهموا الى حد بعيد فى كساء ذلك الهيكل العظمى للمحارب الاسرائيلى بلحم وشحم الانتصارات المتواصــلة حتى أصبح بالنسبة اليهم ذلك القانون الذى يشبه القدر ٠٠ وكأنه أصبح قدر المحـــارب الاسرائيلى أن ينتصر على الدوام الأمر الذى دفع الى الامام بمفاهيم ما يعــرف فى دوائر الحرب الاسرائيلية بقانون « الكراسة الزرقاء » ٠٠ والتى تعنى بالنسبة للمحارب الاسرائيــلى ان لا متاريس بالنسبة له غير أمواج البحــر الابيض المتوسط ٠٠ وان الهزيمة فى معركــة واحدة حتى ولو كانت فى المجال التكتيكى ، ستسمره بالسناكى على أمواج البحر ٠٠ ومن أجل هذا فقدره ان ينتصر ، وقدره أيضا أن يدور فى حلقة مفرغة من الانتصارات حتى ولو لم تفرض هذه الانتصارات ان تضـــع دولة المنطقة تاثيرها على جواز السفر الاسرائيلى ٠

ولاشك ان المهندسين العسكريين الاسرائيليين قد ساهموا فى تكوين عقلية المحارب الاسرائيلى ولا شك أيضا ان خبراء ومهندسى « الكيبوتز »

قد لعبوا هذا الدور أو ذاك في ربط الاسرائيلي بأرض ـ المستعمرة ـ وهو الذي كان ـ عبر مراحل التاريخ ـ غريبا عن المجتمع الزراعي وعن الاحساس بالأرض ، ولا شك أيضا ـ وللمرة الثالثة ـ أن هناك العديد من العوامل الاقتصادية والنفسية تضافرت جميعها لكي تصوغ لأول مرة في التاريخ معادلة الرجل أو المحارب الاسرائيلي وتربطه عضويا وروحيا بذلك الكيان المفتعل الذي أطلقوا عليه اسم ((اسرائيل)) ٠

غير أننا نرتكب خطأ فادحا وربما يكون قاتلا لو أسقطنا العنصر الأدبي والفني من معادلة تكوين الرجل الاسرائيلي ٠ فلا يزال الشائع في دوائر المثقفين العرب العليا والوسطى والدنيا ان الأدب والفن الاسرائيلي يرتكز أساسا على أسس دعائية ، وفي اتجاه تقديم وجه مزيف لاسرائيل وللعالم وهو غير الوجه الذي تظهر به تحت الخوذة الفولاذية كلما مارست جريمة عدوان ٠٠ أو قامت باغتصاب قانون دولي في الارض المحتلة ٠

والذي يجب أن نفهمه ونعيه ان الواقع الموضوعي للأدب والفن الاسرائيلي لا يقوم كله على أسس دعائية ، ولا يقوم كله للمرة الثانية على أساس السلعة التي تصنع خصيصا للتصدير الخارجي ، وبالتالي فالنظرة الاحادية للأدب الاسرائيلي للرواية والقصة والقصيدة واللوحة والفيلم لا يمكن أن يتمخض عنها

الا تلك الجرذان أو القطط فى أحسن الاحوال .. والتى تدب فوق أرفف مكتبات المثقفين العرب .

فالادب الاسرائيلى فى صلب تكوينه ،يهدف أول ما يهدف الى اعطاء المحارب الاسرائيلى ذلك الاحساس بالارتباط « بالوطن » ، بعد مئات السنين من التشريد .. وأسوار الجيتو .

فالأدب الاسرائيلى فى صلب تكوينه يهدف الى اعطاء المحارب الاسرائيلى تلك الفرحة الروحية التى يحس بها الانسان ــ الذى كان منتميا لأرض أو جنسية أو لغة عبر الدهور ــ ثم أصبح ذلك المنتمى لأرض وجنسية ولغة .. والادب ــ الاسرائيلى يتجه أول ما يتجه الى تقديم أدب وفن لمجتمع اسرائيلى ، كان أناسه يرتبطون تاريخيا ونفسيا بآداب وفنون المجتمعات المختلفة التى عاشوا فيها عبر القرون .. ولأول مرة يصبح لهم أدب خاص بهم .. أدبا يطفح فوق جلد الارض التى أصبحت بقانون الغصب والعدوان ــ تلك الخريطة السياسية ــ التى غرسوا فوقها سناكى بنادقهم وصاحوا من فوق أبراج الدبابات : هذه أرضنا .. !

ان الادب الاسرائيلى اذن،ليس كله للدعاية وان كانت الدعاية فى صلب تكوينه ..وليس كله أدبا يطبع فى لغة واحدة .. أو عدة

لغات خارج دائرة اللغةالعبرية •• فالروائيون الاسرائيليون والكتاب الاسرائيليون عـــامة ، يكتبون أول ما يكتبون بهدف ربط المحـارب الاسرائيلى بالأرض والعطـــائه تلك الدوافع الروحية والوجدانيـة التى يحمل البندقيـــة دفاعا عنها •• فالمحـــــاربون الاسرائيليون لا يربطون بالحبال ويساقون بالأغـــلال الى ميادين القتال •• والحقيقــــة التى يجب أن نتعامل معها ، ومن المفيد أن نتعامل معهـــا بلانظرة أحادية ، بعيدا عن هستيرياالغوغائية ان المحارب الاسرائيلى ينطلق بقوة الدفـــع الذاتى للمعــــركة •• والروائيون والادباء والفنانون الاسرائيليون يسخرون لخدمة هــذا الغرض •• فهم يقدمون ولأول مرة انتاجـــا أدبيا ، يعملون على تخليصــــه على الدوام من شوائب الآداب والفنون الأجنبية الذى نرع اليهود المستجلبون من الخارج فى مجالاتها ، وهم يقدمون لأول مرة قاموسا أدبيا وفنيـــا خاصا بالاسرائيليين •• ومن أجل هذا فمن مسئولية الموكول اليهــم ، أو الذين توكلوا تاريخيا عن القارىء العربى ، من مسئوليتهــم أن يحيطوا باعمال أولئك المهندسين الروحيين للمحارب الاسرائيلى فى مجـــال الأدب والفن •• وان يحاولوا التغلب ـ ما أمكنهم الى ذلك سبيلا ـ على كل العقد والمعوقات التى تحـول بينهم وبين دراسة ما يجرى على الوجه الآخـر

من الميدان ·· أي ذلك الوجه الآخر للمحارب
ـ الاسرائيلي الذي يصـنعه الادباء والفنانون
الاسرائيليون ·· واعتقد أن من حق القارئ
العربي علينا جميعا ان نقدم له صورةصادقة
وأمينة عن الذي يجري في الفرقة السريةداخل
الأرض المحتلة ·· عن كل العوامل مجتمعـة
والتي تصنع عقل وروح ووجدان الرجـــل
العدو الذي نواجهه ويواجهنا ·· فمن الجمود
في أعلى صوره وأشكاله أن نقتعد الارائكفي
حجرة من البلاستيك أو في بالون من الاسمنت
ونقـول ·· : ان الادب الاسرائيلي في مجموعه
أدب دعاية عنصرية سوداء ·· وهو لا يفرض
عالميا الا بقـوة تأثير دور النشر الصهيونية
العالمية والمصائد والفخاخ التي تنصبها للنقاد
العالميين ودور النشر ، وانه أدب ســـاقط
شكلا وموضوعا ·

ان الواقع يتناقض تماما مع هذه النظرة
المريحة المتعالية وليس من قبيل الاستفزاز
لأحد ـ ان الرواية الاسرائيلية المعاصرة ابتداء
من الروائي الاسرائيـــلي « أهارون ميجيـد »
و « موشي شامير » ومرورا بالروائيين « يهودا
اميهاي » و « يوران كانيوك » ·· حتى «يائيل
دايان » · لم تفرضهم قوة الدعاية الصهيونية
وحدها على القراء في العالم ·· ولكن منأسباب
فرضهم موضوعيا ـ وليس هذا من قبيـــل
الاستفزاز للروائيين وكتاب القصة العـرب

للمرة الثانية ، هو معايشتهم وتجربتهم الذاتية وارتباطهم العضوى بانسان الدياسبورا التاريخى •• الذى حولوه ـ وهو اليهودى التائه ـ الى ذلك المحارب الذى يواجهنا ونواجهه •

ولو أردنا أن نقوم بدراسة مقارنة وسريعة بين أعمال الروائيين الاسرائيليين وفى اتجاه تدشين الروح الاسرائيلية ـ ولو بزجاجات الدم العربى ـ وبين أعمال الروائيين والقصصين الفلسطينيين والعرب وفى اتجاه تدشين روح الانسان العربى الفلسطينى ـ ولو بزجاجات الحبر ـ فمن الانصاف حتى للعدو ان نقول ـ انه ما خلا هذا العمل الروائى أو ذاك •• « ولغسان كنفانى » بشكل خاص فلا يوجد فى مجال القصة أو الرواية العربية ما يمكن أن نقول عنه : انه قد ساهم فى البناء الوجدانى والروحى للانسان العربى الفلسطينى •• فما كتب عربيا عن الوجه الادبى لفلسطين المحتلة من هذا الروائى أو كاتب القصة العربى أو ذاك لا يخرج عن دائرة الكتابة « من الذاكرة » •• أو احتلاب ضرع التاريخ العربى لفلسطين أو الريبورتاج المسرحى •• فمعسكرات المشردين على سبيل المثال فى قطاع غزة والتى كانت تؤلف ثلث المشردين الفلسطينيين العرب ، والتى كانت على مرمى حجر من كتاب الرواية والقصة فى القاهرة

.. لم تحرك روائيا او قاصا .. لكى يغبر معطفه بغبار تلك المعسكرات .. وحينما نرى الآن عملية الانزال الجديدة - من الذاكرة - أو من أخبار أعمدة الصحف والتى يقوم بها الروائيون والقصصيون « الكوماندوز العرب » على الأرض المحتلة والتى تأخذ شكل المسرحية أو القصة أو السيناريو ، يصبح من مسئوليتنا جميعا .. ان نتصدى لغارة الهكسوس الجديدة ونطالب أولئك الكوماندوز من فصيلة الروائيين والقصصين العرب ان يحتذوا على الاقل حذو يائيل دايان الكاتبة الروائية الاسرائيلية - والمجندة التى خدمت عامين برتبة ليفتنانت فى الجيش الاسرائيلى منذ ١٩٥٦ والتى فى أسوأ الظروف تكتب تجربتها الذاتية وتساهم من خلال أعمالها الروائية والقصصية فى حشو بندقية المحارب الاسرائيلى بالرصاص .

ان العدو الاسرائيلى ليس ذلك الكيس التقليدى المحشو بالرمل والذى اعتدنا تعليقه فى خطاف حديدى فى حجرنا ، وتصويب الحراب اليه .. انه ذلك العدو الذى يجب أن نعرفه ، كشرط رئيسى من شروط الانتصار عليه ، وهذه الدراسة عن الرواية الاسرئيلية المعاصرة ليست غير راية صغيرة تغرس على الطريق الطويل الذى يجب أن نسير عليه

وفى محاولة جادة وشائكة للاقتراب أكثـــر وأكثر من الأسلاك المكهربة التى يقف خلفها العدو بأبراج دباباته وفوهات مدافعـــه .. وبروايات يائيل دايان ، وموشى شامير ،ويورام كانيوك ، وأهارون ميجيد ، ويهـــودا اميهاى .. الخ .

الفصل الأول

الجزء الأول

١ "هاملت الإسرائيلي والدياسبورا"

فى العدد رقم ٥٢٢٦ بتاريخ ٢٠ يونيو ١٩٦٩ كتبت مجلة « الجويش كرونيكل » التى تصدر فى لندن باللغة الانجليزية مقالا للمعلق الأدبى اليهودى ل.أ. يودكين جاء فيه «انه من المتعارف عليه ان الأدب هو التعبير الشفوى والمكتوب لعالم الكاتب ، وان هذا العالم يتألف من العناصر التاريخية والجغرافية والاجتماعية والروحية . وهذا التعريف ينبطق تماما على الأدب العبرى الذى يستمد أصوله وعناصره من العالم الذى يجرى فيه طولا وعرضا، ومن مجموع الخطوط المرئية وغير المرئية للبيئة التى يتحرك فيهـا .. وحينما كان الأدب العبرى يكتب من قبل الأوروبيين اليهود ، فلقد كان تعبيرا عن اهتمام اليهود الغربيين بهذا العالم المحدد . والآن تغير جوهر المسألة كليا . فلم يعد الأدب العبرى يكتب فى الخارج ، وانما أصبح يكتب فى (اسرائيل) لقد صار يعبر عن

نفسية (الأمة اليهـــودية) منجزاتها التاريخيـــة ، وخلفيتها الأيدلوجية ، مشاكلها الاجتماعية والثقافية ، وجغرافيتها أيضا ..

ويمضي المعلق الادبي اليهودي يودكين يقول في توضيح ماهية الأدب العبرى .. : وهكذا انتقل الأدب العبرى من مرحلة التعبير الخارجي (الاوروبى) الى مرحلة التعبير الداخلي (اسرائيل) . ان الأدب العبرى الآن أصبح له ذلك المجال المغناطيسى الواحد الذى ينجذب اليه وهو المجتمع الاسرائيلى الجديد ..

ففى وقتنا هذا انتقل الشعب اليهودى من مرحلة التشتت (الدياسبورا) الى مرحلة التجمع الوجودى ولأسباب تاريخيـــة وايدولوجية فان طبيعة الأدب العبرى قد تغيرت كليا .

ومن الطبيعي ـ وعلى هذا الضوء ـ أن يكون الادب العبرى محصورا ضمن حدود دولة صغيرة (اسرائيل) . والذين يتكلمون العبرية فيها هم الأقلية ..

ان الجسم اليهودى الواحد قد انقسم الى جزءين .. اسرائيلى ولا اسرائيلى ـ والجزآن يرجعان الى ميراث تاريخى واحد والى شريان دم واحد .

كان من الضرورى أن نقوم بهذا العرض فى تعريف الادب العبرى كما يراه أحد النقاد الاسرائيليين ولسببين رئيسيين هما :

أولا : ان الاتجاه الجديد بالنسبة للنقاد الاسرائيليين صـــار يتجه الى رفض الادب الذى يأتى من كتاب يهـــود يعيشون خارج اسرائيل ، وفى نظر هؤلاء النقاد ان ما يكتب خارج اسرائيـــل ، ليس الا شقشقة لسان وبهلوانيات مثقفين يريدون أن يساهموا فى بناء اسرائيل من الخارج ، وان الادب العبرى الاصيل لا يمكن أن يكتب خارج اسرائيل .

ثانيا : ان الادب العبرى يكتب أساسا وبشكل رئيسي لاعادة صياغة الشعب اليهودى ، صياغة روحية ونفسية وان كان الادب العبرى يترجم للغات العالم ، وهذا ما يجب أن ندركه ، فليس من قبيل الدعاية فقط ، وانما فى اتجاه تدعيم الكيان الخاص لاسرائيل • وفى اتجاه تقديم الوجه الادبى والفنى لاسرائيل عالميا •

واذا ما امعنا النظر فى تعريف يودكين للادب العبرى فلابد ان نلاحظ ما يلى : —

(أ) ان اتجاه الابتزاز العنصرى واضح تماما بالنسبة للكتاب اليهود الذين يرفضــون لســبب أو لآخر ان يعيشــوا فى اسرائيل .

(ب) ان الناقد الأدبى يتكلم عن التغير الجوهرى فى الأدب العبرى بعد المرحلة التى يسميها بالتجمع الوجودى لليهود ، ويرجع اسباب هذا التغير لأسباب تاريخية وأيديولوجية ، مع أن العالم أصبح يعرف الآن ولو الى مستوى متواضع ، أن الانعطاف الجديد فى الأدب العبرى لا يرجع لأسباب تاريخية وايديولوجية بل لأسباب اغتصابية وعدوانية ، فالأسباب التاريخية والايديولوجية لا يمكن وحدها أن تفرض التجمع الوجودى لليهود وان تحل المسألة اليهودية على حساب شعب آخر — على حساب طمس قسمات وجهه ومعالم وجوده .

لقد أصبح الآن ذلك (الكيان لاسرائيل) ولأول مرةفى تاريخ المجتمع البشرى يحدث أن تمارس عملية اغتصاب الأرض ، ثم يأتى من يقــول : لقــد أصبحت هذه الارض أرضكم •• وانتم الشرائح المقتطعة من هذا الجسد أو ذاك •• أصبحتم جسدا واحدا •• ولا بد بالتالى أن يكون لكم أدبكم وفنكم الخــاص بكم والذى يعبــر عن وجودكم الجديد »•

غير اننا ورغم هذا التكوين المصطنع الذى نواجهه ، لا يمكن أن نقوم بتبسيط المسألة الى تلك الدرجة التى نقول : ـ ما دمنا معترفين بأن ما تم فى الارض المحتلة هو عملية اغتصاب وسطو ـ فما ينتج عنه من أدب وفن لا يمكن أن يدخل فى اطار الادب والفن ـ وبالتالى فلا بد من رفضه . وأعتقد ان مثل هذا الموقف ، هو أكثر المواقف سلامة وراحة ، ففى مثل هذا الموقف ، راحة للروائيين والمثقفين العرب وراحة للنقاد وراحة للقراء أيضا ٠٠ الذين علينا أن نوفر عليهم مشقة التعرف على أدب عنصرى ..

ومع الاعتراف التام بعنصرية الادب العبرى ، وبعنصرية انفصام الشخصية فيه ، الا أننا فى الوقت نفسه لابد أن نحيط بتلك التجربة التى تتم وراء الاسلاك الشائكة ، وفى سراديب المختبرات السرية والعلنية داخل الارض المحتلة ، حيث يتم صنع ذلك السلاح السرى الذى اسمه « الكتاب » ٠ فلأول مرة فى التاريخ يقوم فريق من الادباء والمفكرين والفنانين بمحاولة صنع عقل جـــديد للكائن الاسرائيلى ـ ولأول مرة فى التاريخ أيضا ينكب هؤلاء الخبراء فى مجال الأدب والفن على عملية غسل الدماغ الاسرائيلى رغم مرور أكثر من خمس قرن على قيـــام اسرائيل ٠٠ ومن شوائب الثقافة الأجنبية وتأليف تلك الطبعة الجـــديدة الخاصـــة التى أسمها الاسرائيلى الجديد .

ولعل الشاعر الاسرائيلى «حييم نحماق بياليق» هو أصدق من يقدم لنا صورة هاملت الاسرائيلى الجديد وبطاقته الشخصـــية ليس كانسان يسأل ـ وانما كانسان يسرق ـ ٠٠ ان هـــاملت الاسرائيلى بالنسبة الى الشاعر حييم هو « اللص » ٠٠ وهو لا يخفى فرحته بميلاذ هذا الهاملت اللص حينا يقول : ـ « حينما بلغنى أن أول لص يهودى ضبط متلبسا بالسرقة فى تل أبيب ـ هزتنى

الفرحة حتى العظم حتى اننى صرخت ليباركه الرب .. فلقـــد عشت ورايت هذا اليوم .. !

ويواصـــل حييم نحمان بياليق تقـــديم رؤياه عن هاملت الاسرائيلى اللص .. أو عن « اسرائيل » : « حتى تم القبض على ذلك اللص ... فالقصة تستمر ... فبناة تل أبيب الأوائل كانوا حفنة من المثالين الغرباء الذين يشتغلون فى النهار ثم يديرون المناقشات السياسية فى الليل .. ثم ظهر ذلك اللص كبشارة لمرحلة جديدة .. فالمثاليون بدءوا يمارسون سلوك الناس العاديين .. !

ان شخصية « هاملت الاسرائيلى » تقودنا الى الحركتين الخارجية والداخلية للشخصية الروائية الاسرائيلية ، والتى هى فى مجـال التطبيق العملى ، حركة الكائن الاسرائيلى ، أو المواطن الاسرائيـلى العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فاذا كان هاملت مثلا بالنسبة للشاعر الاسرائيلى حييم بياليق هو بشارة الوجـود الاسرائيلى على أرض فلسطين ، بشارة التوالد والتكاثر .. فالحركة الداخلية لهاملت ، مرتبطة تماما بحركته الخارجية عبر العصور .. فالكائن الاسرائيلى الذى تشكل الدياسبورا تراثه الروحى التاريخى يجىء الأدب العبرى الحديث ليحقنه بالمصل الواقى ضد مرض انفصام الشخصية ، فروحانيات وأدبيات ووجدانيات التشرد عبر العصور لا تكفى وحدها ولا تكفى ترسانة العهد القديم أيضا ، لكى تجعله ذلك الكائن الذى يضع يده دائما على زناد مسدسه يقظا ، مفتوح العينين دائما وعلى امكانية دياسبورا ثالثة فى حياته ... ومن اجل الدياسبورا تحتل مكانها فى الرواية الاسرائيلية المعاصرة كأجراس انذار معلقة تدق فى عنق الكائن الاسرائيلى المعاصر ... وليس هذا فقط ، فنحن نلاحظ ان الشخصية الروائية الاسرائيلية الحديثة ـ كما سيجىء فى الفصول التالية من هذه الدراسة ـ تصرخ على الدوام مطالبة بحضارة عبرية خالصة تتشكل وتتفرع وتتبلور

فى استقلال تام وعن كل رواسب الحضارات الأجنبية الاخرى ...
وتتم في اطار (الدولة الاسرائيلية) •

ورغم أن الدياسبورا[1] — أو حركة التفرق والتشرد الاسرائيلية عبر العصور — تمثل بالنسبة للاسرائيلى « أقدم قوة طيران جوية فى العالم » •• « الا أنها قد أصبحت بالنسبة للروائى « موشى شامير » .. « ذلك الأسلوب القديم لحياة اليهودى والتى أخذت تنخرها عوامل التصفية يوما بعد يوم •• كأنها قد أصبحت بالنسبة للاسرائيلى تلك المعادلة التى تقول : انه بقدر ما يحقق اليهودى وجوده فوق الأرض الجديدة التى أصبحت ملكا له «اسرائيل» يستطيع أن يفلت من المصيدة التاريخية للدياسبورا القديمة •• أو براثن الانتماء لأسوار الجيتو ، وفى الوقت نفسه فالمعادلة تقول بدون مواربة ان على الاسرائيلى الجديد أن يعمل على تحقيق وجوده الخاص فى الوقت الذى يجب عليه أن لا يذود عن كتفه أو عن الأشجار الجديدة التى يزرعها طيور الدياسبورا .. التى تذكره دائما .. أن غرف الغاز هى البديل .. لأية حجرة فى أية مستعمرة « للكيبوتز » واذا كانت الصهيونية بالنسبة الى الروائى موشى شامير ، « لهـــا رائحة المطار » •• فى رواية « الحدود » وبالنسبة لبطلة « رفائيـــل أورلان » ، فلقد أصبح لها عطر أعشاب « كيبوتز جلعـــاد » وبالنسبة للروائية يائيل دايان فى روايتها الأخـــيرة « ولدان للموت » حيث يصبح العسل فى عينى « دانيال » بطل يائيل دايان هو طين نهر الأردن •

واذا أردنا أن نجسد «فنيا» ذلك الحوار اليهودى والدياسبورى او صح التعبير وبين اليهودى الجديد — مواطن أسرائيل — فلنقرأ هذا الحوار بين حاييم الاب المقيم فى وارسو — وبين دانيـــال الابن مواطن كيبوتز جلعاد فى فلسطين ، فدانيال يكتب لأبيه الذى لم يره منذ كان فى الخامسة من عمره ، حينما اقتحم هتلر وارسو

•• ووضع النازيون حاييم الاب أمام الإختبار الرهيب: أن يقدم لهم ولدا من ولديه ويحتفظ هو بالآخر ••والقصه سنعرض لها بالتفصيل ولكن الذى يهمنا الآن هو ما رد به الأب على رسالة ابنه حينما قال له : انه يعمل مزارعا في كيبوتز جلعاد قرب مدينة الناصرة •• ثم عليه الآن أن يقضي سنتين ونصفا مجندا فى الجيش الاسرائيلى وكجندى مظلى •• ويكتب حاييم الاب لدانيــال الابن ـ المزارع والجندى المظلى :

« •• هذه أول مرة يصبح مزارعا فيها أحد أبنـــاء أسرة كالنسكى . . وهذه هى المرة الأولى ايضا التى يصبح فيها واحدا من الاسرة جنديافي الجيش •• انك تكتب لى عن التمارين التى تقوم بها وعن عمليات الهبوط من الطائرة •• ويبدو لى ان جيلكم اقرب الى الرب من جيلنا •• فأجدادك من عائلة كالنسكى •• لم يرتفعوا الى أعلى أكثر من ارتفاع الطوابق الثلاثة لمخزن الثياب الذى كانوا يملكونه . . وها أنت ذا ترتفع الى أعلى . . » .

غير ان دانيال « يائيل دايان » لم يرتفع الى أعلى بطائرتــه والمظلة فوق ظهره ليكون قريبا من الله •• وحينما كان يهبط من الطائرة بمظلته . . لم يكن يحمل « الوصايا العشر » ولا « نشيد الانشاد الذى لسليمان . . » كان المظلى الاسرائيلى يحمل فى صعوده وهبوطه وصايا عشرا أو عشرين من نــوع آخــر •• هى وصايا الجنرال موشى دايان . . والد كاتبة القصة والروائية « يائيل دايان » .

الجزء الثانى

"ب" ضد "الهسكلاه" القديمة والجديدة بلا هوادة

اذا كان أدب « الدياسبورا » ، هو « مزامير **المنفى** » لداود أوروبا الغربية والشرقية .. ، واذا كان « هاملت التائه » ، قد فتح حقيبته أخيرا .. بعد أن تسلل فى أعقاب الحرب العالميـة الثانية الى شواطىء فلسطين ، وبدأ يعلق ثيابه فى دولاب ، وقدم له أحد وكلاء « الوكالة اليهودية » — التى تحولت فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ الى حكومة — بطاقة شخصية تؤكد أنه من مواليد وطن لم يره هو فلسطين .. ! واذا كان قد أصبح لأول مرة ذلك المزارع أو المحارب ثم ذلك الذى يحمل جواز سفر وينضـوى تحت لواء علم ، فكل هذا يمكن أن يحدث — سياسيا — ولقـد حدث بالفعل ، وأصبح (واقعا قانونيا) حينما صـــدر قرار التقســيم الدولى فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وأعطى لقب « مواطن اسرائيل » لمئات الألوف الذين يتكلمون « اليديش » ولا يعرفون حرفا واحدا من العبرية ، انحدروا من ضفاف « الفســتولا

والفولجا والراين والدنيبر» لكى يأتى من يقول لهم «باليديش»..
هذا هو نهر الأردن ، نهركم الذى لن يخذلكم ماؤه ولا طميه ،
أفرغوا من شرايينكم مياه الفولجا والراين والدنيبر والفستولا..
تقيأوا من شرايينكم تلك الوحول ، واملأوها بمياه نهر الأردن ..
هذا هو دمكم .. لبنكم وعسلكم .. » .

واذا كان كل هذا يمكن أن يصنع ، ويمكن أن يحدث ، ولقد حدث بالفعل ـ بشكل لم يعرفه التاريخ من قبل ـ قانونا وسياسة ، فمن الصعب أن يستمر فى الحدوث ـ فكريا وفنيا وأدبيا ـ وهنا يكمن جوهر قضايا الأدب والفن بالنسبة الى الرواية الاسرائيلية المعاصرة ، بالنسبة الى كل فروع الأدب والفن ، وهذا هو سؤال التحدى الذى تطرحه الحياة والذى على « الأدب الاسرائيلى » أن يجيب عليه ..

ولقد كان جواب الأدب الاسرائيلى على سؤال التحدى بادىء ذى بدء ، هو تلك الريشة الذهبية التى ألقاها « ليون اوريس » فى رواية « الخروج » .. ثم سرعان ما تلقفتها أيدى النقاد ، وما أسرع ما غرست تلك الريشة فى قبعة حركة القصة العالمية الغربية واعتبرت على الفور الوثيقة التاريخية لتهريب « أنبياء » حجر الغاز وسراديب الجيتو الى « أرض الله » ..

ولكن تلك « الريشة الذهبية » ، ما أسرع ما صدأت فى القبعات ، وسقط طلاؤها وانطمس وجه « ليون أوريس » من فرط التداول المذهل ـ كوجه قطعة النقد المعدنية .. فالرواية فى خطوطها الرئيسية والتفصيلية لم تكن فقط « ذلك الكتاب الفظ المبتذل» كما صرح قطب صهيونى هو «جون كمشة»للجويش اوبزرفو (العدد ١٧ ، المجد ١٠ ـ ٦٢/٤/٢٧) (غسان كنفانى ـ فى الأدب الصهيونى ـ دراسات فلسطينية ٢٢ ـ ص ٩١) ، بل كانت « الاكسودس » بمثابة عملية طرح لكل الحقائق

التاريخية ثم فى الوقت نفسه عملية « ضرب للأكاذيب » فى بعضها البعض .. ثم « عملية جمع » لها فى شكل روائى .. وهـذه الرواية لن نتعرض لها من هذه الزاوية بأكثر من هذا ، فلقد تداولتها دوائر المثقفين العرب فى نصها الانجليزى ، كما تناولها بالتفصيل القاص الفلسطينى غسان كنفانى وفوق كل هـذا فالاكسودس رغم الدور التاريخى الذى لعبته بالنسبة للحركة الصهيونية فى أوروبا وفى الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، كطبعة جديدة « منقحة » ومضافا اليها (سفر بناء اسرائيل) ــ لم تعد نموذج الرواية أو القصة الاسرائيلية المعاصرة .. وذلك لسببين رئيسيين : ــ

أولا : ان حجر الغاز ، وكابوس الصليب المعقوف ، والاشارات الضوئية التى كان يتبادلها « آرى » مع عملائه فى موانىء « قبرص » السرية .. وصفقات تهريب اليهود الى شواطىء فلسطين فى بواخر يونانية ثم بناء اسرائيل (من الخارج) أى بواسطة اليهود القادمين من أوروبا ، لم يعد ديكور الرواية الاسرائيلية المعاصرة وذلك لما يلى : ــ

(أ) لقد انكشفت مجموعة من الحقائق ــ ولو بصورة نسبية ــ أمام المواطنين البسطاء فى مختلف بلدان العالم وأصبحوا يدركون أن فلسطين عام ١٩٤٨ ، لم تكن تلك الجزيرة الخالية من السكان ، أو الجزيرة التى تسكنها قبيلة همجية ، وأن « آرى » لم يكن روبنسون كروزو الذى حصل لجزيرته « بذور القمح والرصاص معا » .. كما وأن دخول عنصر المقاومة المسلحة ، والعدوانات الاسرائيلية المتواصلة وعلى رأسها عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ قد جعلت

الاكسودس من الناحية السياسية على الأقل موضع الشك والتساؤل .

(ب) ان آرى لم يعد حلم الرواية الاسرائيلية فى هذه المرحلة من حياة « اسرائيل » ولم تعد معجزته هى القضية، فاسرائيل قد أقيمت بقوة السونكى ومشط الرصاص وبقوة الكلمة والحلم .. بناها أولئك الذين جاءوا يحملون رماد آبائهم وأمهاتهم فى معسكرات اوشفتز وبوخنوالد وفى زجاجات ، أدوا أدوارهم كفيالق أمامية مقاتلة — ثم تحولوا فى أواخر السينيات وبداية السبعينات الى احتياطى تاركين لأبنائهم أماكنهم فى خطوط القتال الأمامية .

ثانيا : هكذا اذن يخلى « آرى الاكسودس » مكانه « للبطل الاسرائيلى المعاصر « البطل الذى ولد فى « اسرائيل الدولة »، أو الذى كانت اسرائيل بالنسبة له هى « دار الحضانة » يخلى مكانه « لدانيال » « ولدان للموت » ليائيل دايان ، أو « لرفائيل » « اورلان » (الحدود) لموشى شامير « ولجويل يهودا أميهاى » ليس الآن وليس من هنا » أو غيرهم من الأبطال الاسرائيليين المعاصرين الذين ولدوا فى أعقاب نهاية المرحلة الأولى من اعلان اسرائيل وقيامها .

ان مشكلة « البطل الاسرائيلى المعاصر » — « البطل » من مواليد ١٩٤٨ — بالنسبة للرواية الاسرائيلية الجديدة هو راس السونكى ، فامتيازه على آبائه ليس بشهادة الميلاد ، فى تل أبيب أو بئر السبع أو ناتانيا ، أو أية مستعمرة من مستعمرات الكيبوتز ، وليس امتيازه أيضا على أولئك الآباء هو أنه قد رضع مباشرة من ثدى الأرض ، بل لأنه ابن الجيل الاسرائيلى الثالث الذى تقع على كتفيه مسئولية الحفاظ على (اسرائيل الدولة) ؛

التى حلم بها الرواد الأوائل من أبناء الجيــــل الأول من سكان فلسطين ، وجاء الجيل الثانى عبر البحار ليستبدل الحـــلم بأصبع الديناميت ثم ليجعل الحلم بعد ذلك يسير على قدميه فى شكل جواز السفر وقطعـــــة الأرض والبيت ، ثم فى شكل الحدود القائمة بين (اسرائيـــل الدولة) وبين كل من الأردن وسوريا ولبنان والجمهورية العربية المتحدة .

هذا هو الجيل الثالث الذى تتجه اليه القصـــة والرواية الاسرائيلية المعاصرة الآن ، وهى وان كانت تضع فى خلفيتـــــه الايديولوجية دائما حجرة الغاز والمذابح الفردية والجماعية والصلبان المعقوفة ، وهى وان كانت للمرة الثانية تحقنه بالمصل الواقى ضد وباء الهسكلاه فى شكلها القديم لها والذى قدمه أول ما قدمـه « موسى مندلسون » الفيلسوف الطليعى لحركة الهسكلاه « أو « حركة التنوير اليهودية » الذى وقف ضد القوقعة الدينيـــة لليهود وضد جدران الزنازين الغليظة التى أقاموها بينهم وبين المجتمعات التى يعيشون فيها ، وانعزالهم الرهيب داخل أسوار الجيتو اليهودى . وموسى مندلسون لم تكن انطلاقته التنويرية تستهدف فقط ، اقتلاع تلك الأسوار من جذورها وجعل اليهود يفتحون نوافذهم على ثقافات وآداب وفنون المجتمعات وهم جزء منها — بل تجاوزتها الى أن يلقى ذلك « المعدن اليهـــودى » فى البوتقة ، وان يذوب وأن يصبح جزءا من المعدن العام للمجتمع الذى يعيش فيه ..

« وقد تجلت أولى مظاهـر الاتجاه فى القرار الذى أعلنتـــه الجمعية الفرنسية (٢٧ سبتمبر ١٧٩١) فى أعقاب الثـــــورة الفرنسية عن مساواة الحقوق بين اليهود والفرنسيين واجتمع رؤساء الطوائف اليهودية فى فرنسا وانهم ليسوا الا « فرنسيين» من أبناء دين موسى » . وقام أحد رؤساء الطائفة اليهـودية فى

فرنسا بارسال رسالة الى اليهود قال فيها : « ان فرنسا هى فلسطيننا جبالها ــ صهيوننا ، وأنهارها أردننا » (رشاد عبد الله الشامى ــ حييم نحمان بياليك حياتهم ــ اتجاهاته الأدبيـــة ص ٤٤) .

هوذا وجه (البطل اليهودى) « اليهودى المتجمد » الذى يرفض « الذوبان » ويقف سياسيا وفنيا فى مواجهـة « موسى مندلسون » وهسكلاه « القرن الثامن عشر » ، كما يرفض هسكلاه النصف الثانى من القرن العشرين ، فالذوبان الجديد أو المعاصر بالنسبة للرواية الاسرائيلية المعاصرة يعنى حقيقتين لا ثالث لهما همـــا : ـــ

أولا : فى كتاب « مقدمة الى اسرائيل » كتب ناحـوم غولدمان يقول : لقد كان الغرض من الدولة اليهودية الحفاظ على الشعب اليهودى الذى كان يهدده «رفع القيود والاندماج» وفى هذا الاتجاه « فاليهودى المندمج » مرفوض ، ومرفوض أيضا اليهودى الذى يطالب برفع القيود التى تحـول بين اليهود وبين الاندماج فى المجتمعات الأوروبية التى يعيشون فيها .. ولا يوجد أكثر دلالة على احتقار البطل الروائى الاسرائيلى المعاصر لليهود الذين يتجهـــون الى اسرائيل « بدفاتر شيكاتهم » ويحتفظون فى جيبهم الداخلى بجواز السفر الأمريكى ، من احتقار « رفائيل اورلان » بطل رواية « الحدود » لموشى شامير لعمه المليونير الأمريكى حيث يقول:

« هذه الصهيونية .. ان لها رائحة المطار » .

فقبل قيام اسرائيل كانت تلك الرائحة لا تزكم الأنوف أبدا .. فالحقيبة واليهودى توأمان والانتقال من مطار الى مطار هو جزء من حياة اليهودى .. أما الآن فم يعد أمـام

اليهودى غير مطار واحد يمكن ان يتطهر فيه من الروائح النتنة لمطارات العالم ، هو مطار اللد .. ومن مطار اللد يمكن لليهودى الدياسبورى ، آن يعمد بمياه نهر الأردن كما كان يفعل يوحنا المعمدان .

ان شعار « حتى الرصاصة الأخيرة ضد الهسكلاه القديمة والجديدة » ليس شعارا « عارضا فوق جلد القشرة الأرضية للرواية الاسرائيلية المعاصرة مرتبطا بهذا الموقف أو ذاك للأبطال الروائيين الاسرائيليين ، ولكنه أحد المدارات الرئيسية . ففى رواية « الاكروفايل » للروائى الاسرائيلى « يورام كانيوك » يتجسد رد الفعل المباشر للاسرائيلى حينما تدوس قدماه مرة أرض مطار نيويورك فتنطلق صرخته : « لقد ابتلعتنى .. » ومن هنا ، أصبح من مسئولية الروائين الاسرائيلين أن يضعوا الحرية بين شدقى هذه المدينة أو تلك لوقف عمليات الابتلاع ثم الهضم فى معدات المجتمعات الأخرى .. وسيعرض فى فصول مقبلة « للاوكرفايل » وبالتفصيل .

فاذا كان شعار « حتى الرصاصة الأخيرة » ضد مفاهيم الاندماج والذوبان على النطاق الخارجى هو واقع الرواية الاسرائيلية المعاصرة ــ ايدولوجيا ــ الا أنه فى مجال التطبيق العملى بالنسبة الى واقع اسرائيل ، قد أخذ بتزايد مستمر ، اتجاها حادا ضد الذوبان فى « بانيو يملأه حامض الكبريتيك » ومن هنا ، أصبح المفهوم العام للذوبان والاندماج الفكرى والحضارى فيما يتعلق باليهود خارج حدود اسرائيل والمجتمعات التى يعيشون فيها ، أخذ مفهوما عضويا جديدا ومغايرا للمفهوم القديم ، فالاسرائيلى الجديد ــ من أبناء الجيل الثالث ــ جيل « الـ ١٥ مايو ١٩٤٨ » لم يعد يواجه شرور اليهود المطالبين بالاندماج ، ووقف التورم العضوى لاسرائيل من الناحية البشرية ،

بل أصبح يواجه كارثة الذوبان « في ذلك البانيو ، الذى يملأه العرب بذلك الحامض .. ! » بل أن الاتجاه الجـــديد للأدب الاسرائيلي يكاد أن ينفخ فى البوق صائحا فى وجوه اليهود من دعاة الذوبان والاندماج : ـ « انكم تساهمون فى صب ذلك الحامض مع العرب فى بانيو واحد » .

والحقيقة العريانة الوجه ـ بلا مكياج فنى أو ســـياسى أن الأدب الاسرائيلى المعاصر ـ الرسمى أو شبه الرسمى ـ قصة ورواية وشعرا ، هو الذى يتحول الى حامض الكبريتيك ـ وهو الذى يحول (اسرائيل) الى بانيو يطفح منــــه الحامض حتى الحافة ، وهو الذى يجعل من قصيدة « حييم نحمان بياليق » الشـاعر اليهـــودى القومى والتى كتبها عام ١٨٩٧ بعنوان « على بيتكم الخرب » قصيدة معاصرة .

« فى أطلال قلبكم دنست « المزوزا »(١)
لذلك تقفز الشياطين هناك وتعوى
أترون من يكمن هناك خلف الباب
بالمكنسة .. ؟
انه خادم المحراب الخرب .
وعلى أحشاء هيكل قلبكم الخرب
يولول ويتثاءب القط المذعور ..

---

(١) المزوزا : ملف صغير من الرق يحتوى على الصــفحات المقدســة من التوراة ويوضع على واجهة الباب ، وكان يعتقد أنه يحفظ كنوع من التعـاويذ ضد العفاريت والارواح الشريرة .

الفصل الثانى

لازاروف وأشجار الزيتون فى مهب الريح

أرى من واجبى - وكمدخـــل للعرض التفصيلى للرواية الاسرائيلية المعاصرة ، أن يرى المثقف العربى الى كيف تكونت « اسرائيل » ؟ أو من وجهة النظر الاسرائيلية المحضة وبدون تلوين أو تزييف لتلك النظرة ، فمسئوليتنا فى اتجاه الاحاطة بعناصر ومقومات التكوين النفسى « لاسرائيل » تقتضى قدرا كبيرا من الحرص الموضوعى على تقديم أدق التفاصيل بالنسبة للتضاريس الطبيعية للوجه الاسرائيلى بحيث لا نعمل على تكبير الصورة فنقع فى مصيدة المبالغة ، ولا نعمل على تصغيرها الى تلك الدرجة التى تنطمس فيها القسمات والملامح أو لاتكاد تظهر فنقع فى فـــخ اللامبالاة أو نبخس تلك الصـــورة حقهـا الطبيعى من الدرس والفحص .

لقد كانت النظرة العامة « لاسرائيل » ، ما قبل هزيمـــة الخامس من يونيو بالنسبة للمثقف العربى وبالنسبة للانســان

العربى العادى أو ذى الثقافة السياسية المحدودة هى ذلك التمثال من الجرانيت الأسود الذى يمكن الاطاحة به واسقاطه عن قاعدته بعود من الثقاب ــ واذا كان هناك حوار مفتوح حول التمثال وعود الكبريت ــ فلقد كان حول عيدان الثقاب وليس حول جوهر قضية الاسقاط ــ وبالطبع فمفهوم عود الثقاب ذلك ــ ما أسرع ما احترق ولم يتزحزح تمثال الجرانيت عن قاعدته ــ بل تحرك ومد ذراعيه لاحتلال أرض عربية جديدة . ومن هذه الزاوية تتبع أهمية النظرة الموضوعية العلمية الواجب ممارستها فى مواجهة العدو الذى نصارعه ومن هنا أيضا تتركز مسئوليتنا حول معرفة كل ما فى الخزانة الحديدية لذاكرة العقل الالكترونى الاسرائيلى ، هذه الخزانة الحديدية التى تحرك الستارات الضوئية لتحركات العدو النفسية والأدبية والفنية وعلى هذا الضوء نتجه الآن فى تقديم « وجه اسرائيل » كما يراه أحد الكتاب الاسرائيليين وفوق مرآته الخاصة ــ والكاتب اليهودى هو موريس س . لازارون ــ مؤلف كتاب « أشجار الزيتون فى العاصفة » . والكاتب لازارون وقبل الدخول فى مجال رؤيته الخاصة لاسرائيل يضعه « النقاد الغربيون » فى مرتبة الكتاب اليهود المحايدين الذين يجدون فى البحث عن جسر للقاء بين العرب واليهود .. ! ؟

يقول لازارون : كنت فى فلسطين لأول مرة عام ١٩٢١ ، حينما قمت بأول زيارة حج لى للأراضى المقدسة ــ وكان ذلك فى الوقت الذى بدأت فيه السياسة القومية اليهودية تظهر على خشبة المسرح السياسى الدولى (فى أعقاب وعد بلفور ــ ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧) ولقد كنت دائما منعطفا فى اتجاه « اعادة بناء فلسطين .. ؟ ! وفى الوقت نفسه معارضا للسياسة القومية اليهودية فى تلك المرحلة ــ أى مرحلة ١٩٢١ ــ كان اتجاه الاستيطان واعادة بناء فلسطين .. يأخذ شكل التعاطف مع البشر

والحركات الثقافية ، وكانت السياسة تتحرك وراء الستار وحينما عدت من زيارتى للأراضى المقدسة للولايات المتحدة الأمريكية أحسست اننى أعوم فى مد حركة عارمة وفى اتجاه البحر الأبيض المتوسط ، الى شواطىء فلسطين .. وما أسرع ما أصبت بخيبة الأمل ، خيبة أملى فى الزعماء اليهود ، والأسلوب الذى يمارسون به عملهم ، وخيبة أملى فى أساليب استخدامهم لكل سلطاتهم السياسية التكتيكية ، لقد كانت كلماتهم المزوقة عن الديموقراطية كجوز الهند الفارغ أو كقشر البيض اذا ما قورنت بسلوكهم ، ومن أجل هذا أعلنت انسحابى من الحركة الصهيونية ..

ويواصل لازارون كلامه قائلا : ان الشىء الغريب فى التاريخ هو الأمل الذى يعطيه للرجال العقائديين . فالتاريخ ليس فقط ذلك المستقبل الذى لم يكتب بعد ولكنه أيضا الماضى الذى تمت كتابته وهو فى الوقت نفسه الحاضر الذى يمكن كتابته . وخلال كل دياجير الماضى وعذابات الحاضر يمتد ذلك الخيط الذهبى ويتوهج فى ظلام الليل والمأساة مرة بصورة مرئية ومرة بصورة غير مرئية . هذا الخيط الذهبى هو الذى يشد عزائم الرجال والنساء كأنه الحبل الذى يربط مجموعة من متسلقى الجبال — وهذا الخيط الذهبى اسمه : « الحلم » .

ان تحليل الأحلام أصبح أمرا معروفا وشائعا فى هذه الأيام ولكنها عملية خطرة فى الوقت نفسه — فاذا لم يكن مفسر الأحلام أو محللها على يقين من أدوات بصره وبصيرته الفنية والعلمية فسيقوم بتحليل أحلامه هو ، لا أحلام الرجل الذى يستلقى أمامه . ونحن اليهود كان ولا يزال لنا حلمنا . لقد دخل الحلم حياتنا وأصبح جزءا منها فى البدء كان حلمنا يتركز فى أرض ، ولقد ضاعت الأرض وتاه اليهود فى مسالك العالم وبين الأمم ..

وأعاد شعبنا تحليل حلمه والامساك بذلك الخيط الذهبى الذى كاد يفلت من أيدينا — ولم يكن للحلم من وسادة يضع رأسه فوقها غير الأدب والدين — وحينما انطلقت بعد ذلك تلك القوة الباطشة الغاضبة فقتلت منا الملايين وشردت الملايين .. كنا نحس اننا اقتفينا خطوات الحلم مسافة طويلة حتى تسلخت أقدامنا .. لقد عشنا بين الأمم ، ولكن لم نكن أبدا بين تلك الأمم .. ولقد علمتنا التجربة أن حلمنا القديم الذى يتجسد فوق تلك القطعة من الأرض هو الحلم الحقيقى ويجب أن نعود اليه ، ان علينا أن نصبح كبقية الأمم ، لأننا أمة من الأمم .. لقد قدمت لنا الفلسفة بعض المساعدة وحرك الغضب واليأس بعض اليهود ، ولكن الأمل كان يربطنا جميعا الى تلك الدرجة التى صحت فيها عزائمنا على أن نغرس دبوسا فى المصور الجغرافى للعالم فوق تلك القطعة من الأرض ونقول : هذه بلادنا .. ! ان هذا هو الطريق الوحيد بعد ألوف الأميال من سنوات التشريد والتيه لكى نحلم حلمنا « فوق ارضنا » .. وهذا هو الطريق الوحيد الذى يمكننا فيه انقاذ رقاب أطفالنا من حديد المقاصل .. لأنه فوق تلك الأرض وحدها يمكن أن يمتزج حلم اليهودى الرب ويصبح الحالمين حلما واحدا .. !

ويواصل لازارون حديثه أو اعترافه :

غير أن بعضا من اليهود لم ينطلقوا فى تحليل الحلم باستخدام القاموس القديم . فالأرض أصبح يعيش عليها جماعة من الناس وعبر العديد من القرون .. ان تسعة عشر قرنا تقف الى جانبهم أما نحن فما الذى يقف الى جانبنا غير « الحلم » .. ومن أجل هذا كان قرار بعضنا أن ينطلق ليسكن فى تلك الأرض من يريد منا ذلك وبقوة النداء الداخلى ، وليس بقرار خارجى يدفعه الى اتخاذ أى قرار ، وأن يكون الانطلاق وبأعداد تسمح ظروف تلك الأرض

باستيعابها وتحت شعار الصداقة والاخاء .. ! ؟ كان علينا أن نتطلق لنتعاون ونتكاتف فوق تلك الأرض مع الناس الذين أصبحت ملكا لهم ، وليس على أساس القهر والفتح ٠٠ كان علينا أن نذهب « كشركاء » فى تلك الأرض وليس كسياسيين يمزقون الخريطة الى قصاصات أوراق ويقولون : هذه القصاصات لنـا ، وتلك القصاصات لكم .. !

ولقد حذرنا البعض من هذا الاتجاه وارتفعت أصواتهم تقول : ان الحلم الذى لا يمسك بالسيف لن يعيش .. ولقد رفضنا (نحن) أن ندخل تلك الأرض وقد خبأنا السيوف تحت معاطفنا ٠٠ وما أسرع ما اتهمنا « ذاك البعض » بالارتداد عن الحلم القديم وبالخيانة أيضا ٠٠ وما أعظم ما كانت عليه تضحية أولئك الناس ٠٠٠ والعمل البطولى الذى قاموا به ! لقد كانوا وحدهم ٠٠٠ ويواجهون بالصدر العريان جدارا من المخالب ٠٠٠ ؟!!! لقد مضوا يقرعون أبواب ونوافذ الأمم صارخين كما صرخ موسى ـ « دعوا شعبى يدخل تلك الأرض التى أعطاها الرب له ٠٠٠ » ودخل الشعب الى الأرض التى أعطاها الرب له ٠٠ ووجدت الدولة ٠٠ وولدت اسرائيل ٠٠ !؟

ولقد خيل للبعض أن الستار قد أسدل نهائيا على مأساة اليهودى التائه ٠٠٠ وأنه وهو حامل الحقيبة التاريخى قد وجد أخيرا الدولاب الذى يستطيع أن يلقى فيه بثيابه ٠٠٠ وان المعجزة قد تمت ٠٠٠ غير أننا من الجانب الآخر أخذنا وفى هذه اللحظات بالذات نقرع أجراس الانذار ٠٠٠ علقناها فى رقابنا ومضينا وهى تقرع ٠٠٠ فالخطر كان أمامنا ٠٠ وكنا نراه ٠٠ وقامت الحرب ٠٠ ثم أعلنت الهدنة ٠٠ ولم يتحقق السلام ولن يتحقق ما لم يلتحم خيط حـلم الانسان بالعدالة مع خيط حلم الله بالحب ويصبحان خيطا واحدا فى نسيج واحد .. ؟!

ويواصل لازارون حديثه لنفسه ولقرائه قائلا : وها أنذا أعـود ثانية لفلسطين ـ اسرائيـل الآن ـ لقد تغيرت وجهـة نظرى بالنسبة للقومية اليهودية السياسية والخلق دولة لليهود •• ومادامت الدولة قد أقيمت بالفعل وأصبحت واقعا ملموسا ••• ؟ فلم يعـد هنـاك ما يبرر أن أظل متمسـكا بموقف المعارضة حتى لا أجرح مشاعر أولئك الذين علقوا راية اسرائيل فى سارية من الدم ••• بل أصبح من واجبى الآن أن أساعدهم فيما لو أتيحت لى ظروف مد العون لأبناء جلدتى . . !

***

ويمضى لازارون اليهودى من طائفة « الرابى » والكاتب المحايد! فى طول وعرض البـلاد ••• يسأل هذا المسـيحى الذى هود فى اسرائيل ••• لماذا تهود وهل كان دافعه للتهود الاحساس باضطهاد الأقليـات الدينيـة ـ أو كان الدافع هـو البحث عن طريق جـديد للخلاص ••• ؟

ان لازارون يسأل ••• وكأنه يريد هو الآخر أن يقنع نفسـه بالعديد من القضايا التى كان يستريب فيها قبل هبوطه الى مطـار اللد •••

وحتى حينما يسأل « لازارون » موشى شاريت حول ما سمعه فى بيروت عن اعتزام عشرات الألوان من اللاجئين العرب القيـام بمسيرة الى حدود فلسطين ••• أجابه شاريت بلا تردد :

« اننـا لا يمكن أن نقبل بحال مبـدأ عودة اللاجئين • فما دام اللاجئون لديهم ـ ولو بصيص من الأمـل فى العودة ـ فسيرفضون الاستيطان فى الدول العربية التى يقيمون فوق أرضها وعليك أن لا تظن أبدا أن قضية

اللاجئين هى مسألة زراعية فى أساسها كما يصورونها لك ـ أو كما يقترحون ـ فقسم كبير من اللاجئين كانوا من سكان المدن • وما دامت هنـاك ولو بادرة توحى بعودتهم •• فلن يتركوا معسكراتهم أبدا ••• » •

***

أردت من وراء تقديم « حلم » موريس مى • لازارون ـ فى كتابه « أشجار الزيتون فى مهب العاصفة » وبالذات الفصـل من الكتاب الذى يتعلق«باسرائيل» أن يرى المثقف العربى تلك الخيوط غير المرئية التى تربط بين لازارون ـ الكاتب اليهودى المحـايد وبين الرواية الاسرائيلية المعـاصرة ••• وحـول التناقضـات المثارة بين الأجيال اليهودية المختلفة ••• فلازارون يكتب كأنه يلقى باعترافه ••• أو كأنه على كرسى الاعتراف ••• فلقد حلم باعادة بناء فلسطين كما حلم غيره من اليهود •• وكأن فلسطين كانت أرضا من الخرائب والأنقاض أو حائط مبكى •• وهو قد عارض فى البدء قيام دولة لليهـود ، ثم اختلف مع غيره من الحالمين حـول أسـلوب تحقيق أو تجسيد الحلم ، هل يتجسد بالسيف أو يتحقق بغصن الزيتون..؟ ولقد انسحب لازارون من الحركة الصهيونية •• ولكنه ـ حينما وضع قدمه ثانية على تلك الأرض التى أصبحت « اسرائيل » يعترف بأنه لم يعد أمامه وقد أصبحت اسرائيل أمرا واقعا ••• الا أن يحمل حجرا وينضم الى طابور البنائين •• انه يناقش فى حيـــاء مترف للغاية •• ويسأل حول العديد من قضايا الصراع بين العرب واليهود ويتلقى الاجابات على أسئلته وانطباعاته يحس القارىء كأن لازارون يريد أن يقول : انه لا مكان فى العالم للحلم •• غير المدجج بالسلاح •• وكأنه يريد أن يقـول بالكلمـات المطبوعة بالحبر الأبيض فوق الكلمات المدموغة بالحبر الأسود ••• ان الأحلام الكبرى كتكوين الدول لا يمكن أن تحلم بها الا العيون المصبوغة بالدم ..

هذه هي على الأقل تجربة الحلم الاسرائيلي ••• وهنا لا يختلف لازارون عن غيره من شخصيات الرواية الاسرائيلية المعاصرة وفي الخطوط الرئيسية لملامح تكوينهم النفسي ووجودهم السياسي فلم يعد الآن ما يشغلهم هو كيف تكونت اسرائيل وعلى حساب من قد أقيمت أو على صدر من قد غرست أعمدتها •• ولكن القضية المطروحة أمامهم هو أن اسرائيل قد وجدت وخاض الحلم الاسرائيلي معركته بالسلاح الأبيض ، وبالتالي فلابد من الدفاع والقتال عن ما هو قائم وموجود .. أما قضية أن تسعة عشر قرنا كانت تقف الى جانب العرب .. وحلما تاريخيا كان يقف الى جانب اليهود ومع ذلك فقد انتصر الحلم على تسعة عشر قرنا وتم ذلك الانتصار على حساب شعب بأكمله •• فمثل هذا كله لا يشكل في التقييم النهائي — حتى بالنسبة لليهود من أمثال لازارون غير أمر يؤسف له أو جرح على الجلد الخارجي للضمير يمكن أن يندمل على مر الأيام ••

وحتى حينما يقول لازارون في خاتمة كتابه المذكور وفي أعقاب زيارته لاسرائيل أنه يعلم بدولة ترفع في ساريتها غصن الزيتون بدل السونكي ، ويتصرف شعبها لا كشعب مختار يمتاز بفصيلة خاصة من الدم •• بل كشعب عادي •• فهو لا يملك أكثر من هذا لكي يقوله لنا •• بل هذا في الواقع هو كل ما يملك أن يقدمه لنا من العزاء •• يقول لازارون هذا وهو يعلم تماما أن مثل هذا الحلم ملء جفونه لن يتحقق واسرائيل محكوم عليها بقانون الهستريا العنصرية والاغتصاب وبحكم كونها الرجل الميكانيكي الذي تحركه مجموعة من أزرار الامبريالية الامريكية ! اسرائيل — كل هذا

الفن التشكيلى العنصرى الأسود ـ لا يمكن أن تقدم لقضية السلام والحرية والديموقراطية الا أصبع ديناميت وهى بحكم تلك القوانين الوضعية التي تحكمها انما تتحول الى معسكر كبير من طراز معسكرات بوختنوالد أو أوشفتز أقامته الصهيونية الفاشية الجديدة ، والجلادون فى هذا المعسكر الصهيونى ـ النـازى الجـديد ـ بل الصهيونيون النازيون الجدد ـ من طراز دانيال كالنسكى «بطل يائيل دايان» الذى لا يجد غير الموت مخرجا من أزمة حياته •• وغير قتل الآخرين•

الفصل الثالث

ولدان للموت

ليائيل دايان

كان الملف يحمل اسم حاييم كالنسكى ، الذى ولد قبل خمسة وستين عاما فى وارسو ، والذى أصبح مواطنا (لاسرائيل) ومقيما فى مدينة بئر السبع منذ ١٩٦٠ ، والى جانب الاسم والعمر ومحل الاقامة ، كانت هنــاك بعض تأشيرات الأطبــاء حــول مراحل مرض السرطان الذى أصيب به المريض حاييم كالنسكى ، والذى ادى الى وفاته ، وبعض المعلومات عن أسرته والتى تشير الى أن له ولدا واحدا مقيما فى تل أبيب ــ ورقم تليفون زوجته الثانية وابنته منها للاتصال بهما عند الضرورة .

كان شريطا كالطبيعة المتحركة ، أعمدة التليفون ، والأشجار ٠٠٠ وقباب البيوت التى نرى اليها خلال زجاج نافذة السيارة . وكان دانيال كالنسكى يرى أن كل شيء يتحرك أمامه ٠٠ وهو ممدد فوق سريره وقد شبك يديه تحت رأسه ٠٠ الجدران تتحرك وتدور

حوله كأنما الجدران تقوم بلعبتها الأثيرة ، وهى الدوران حول الناس ••• ودانيال الآن يتذكر الرسالة الأولى التى بعثت بها مريام كالنسكى ••• أخته من زوجة أبيه الثانية والتى أخبرته فيها بانتقال والده الى المستشفى وبالرغم من انها لم تشر فى رسالتها الى خطورة مرض أبيه الا انها اقترحت عليه أن يعجل بزيارة والده •

وأخذ دانيال يقلب فى أوراق ملف والده ••• كأنه يريد أن يعثر على ذلك الخيط الذهبى الذى سقط تحت أنقاض خمسة وستين عاما •• وانه يحس هو الآخر انه تحت أنقاض شيء مبهم لا يدرك كنهه •• لقد ظهر والده فجأة •• وأحدث فى حياته تلك الدوائر التى يثيرها القاء حجر فوق سطح بركة •• ثم راحت الدوائر تضيق حتى تلاشت واستقر الحجر فى قاع البركة •• واختفى حاييم الأب ثانية ••

لماذا ظهر ذاك الأب ، وهل كان عليه أن يظهر ••• ؟ وللمرة المليون راح دانيال يسترجع ملامح وجه بيتهم القديم فى وارسو ، البيانو الضخم وآنية الزهور الزرقاء فوقه ولوحات أفراد العائلة المعلقة هنا وهناك فوق الجدران ، ثم تلك اللحظة التى رأى دانيال فيها والده يدفن كل ما ادخره من الذهب فى ساحة البيت الخلفية فى الوقت الذى أخذت فيه جنازير دبابات هتلر تعض شوارع وارسو •• ان دانيال لايزال يتذكر يدى والده وهما تهيلان التراب وتسويان الأرض فوق الكنز الصغير •• يتذكر دانيال هذا ويتذكر أيضا أن والده قد ارتدى فى هذا اليوم أحسن حلله •• كأنه لا يريد أن يترك للألمان غير ثيابه وأحذيته القديمة ••

وكأن حجرا قد ضرب زجاج النافذة •• وخيل لدانيال أن يحاول الدخول الى حجرته من خلال الفتحة •• انه دائما يطل على ولده وهو مصبوغ الوجه بالدم ولا يعرف دانيال لماذا يظهر والده له فى هذا الشكل دائما •• ودانيال لا يمكنه أن ينسى اللحظة الأخيرة

التى كانت آخر عهده بوالده ·· كأن تلك الذكرى بمثابة مسمار قد دق فى جبهته ···

لقد جاءوا ذات صباح واقتحموا البـاب ، وبحركة لا ارادية أمسك حاييم بيد ابنه الأكبر (شموئيل)ـ أحد عشر عاما ـ والذى أمسك بدوره بيد أخيه الصغير (دانيال) ·· ونظر الضابط الألمانى الى الولدين وتمتم ·· يا للولدين الجميلين ··

ثم غرس عينيه فى وجه الأب حاييم وهو يقول :

ـ أن عليك أن تختار ···

··· أن يختار ماذا ··· ؟ ولم يفهم حاييم ماذا يعنيه الضابط الألمانى بأن عليه أن يختار ·· ؟ ولم يصدق ما يسمع حين ارتفع صوت ذلك الضابط :

ـ ها ··· من منهما سوف يبقى معك ··· ؟

من منهما سوف يبقى معه ·· هل هناك اذن من سيذهب ، والى أين ·· ؟ ولا يدرى حاييم ما الذى فعله بعد ذلك ، لقد تشبثت يد ابنه الأكبر شموئيل فى يده تخشبت أولا ··· ثم راحت تذوب كقطعة الثلج ··· وحدق حاييم فى وجه ولده الآخر ، ثم أدار وجهه ومضى دون أن يتلفت وراءه ···

لقد طلبوا منه أن يختار اذن واحدا من ولديه وأن يأخذوا هم الولد الآخر ··· ولكنه لم يختبر ··· كل الذى حدث أن يد ولده الأكبر قد أمسكت بيده ولم يستطع من فرط الانهيار أن يفتح فمه بكلمة ··· !

***

بهذه الفاتحة « الفاجعة » تدشن يائيل دايان مفتتح روايتهـا « ولدان للموت »،ورغم انها قد جمعت لمفتتح الرواية كل « أوركسترا الاضطهاد النازى » لعزف ألحان أوبرات معسكرات أوشفتز وبوخنوالد

للاعتقال الا أن يائيل تريد أن تقول شيئا آخر غير المعنى التقليدى المستخلص من مآسى الاضطهاد النازى ··· فهى من خلال العرض كله تريد أن تؤكد حقيقة واحدة ··· خلال تتبعها لمجرى حياة الابن الثانى دانيال كالنسكى الذى سنرى خط سيره خلال العرض ··· تريد أن تؤكد ان الابن الثانى الذى بقى لحاييم كالنسكى والذى نجا من الموت بما يشبه المعجزة هو للموت أيضا ··

فتهريب اليــهود على بواخر يونانية ··· وتواطؤ الانتـــداب البريطانى على فلسطين بالنسبة لمؤامرات التهريب من شواطىء قبرص الى شواطىء فلسطين ··· واعطاء الضوء الأخضر لبواخر التهريب كى تلقى مراسيها ، هو بمثابة المعجزة بالنسبة ليائيل ··· ولغيرها من كتاب الرواية الاسرائيلية المعاصرة ···

يائيل اذن تريد أن تؤكد انه قدر اسرائيل أن تدفع أولادها للموت ، وأن يفرض الاختيـــار البشع على الآباء اليهـود ··· أن يختاروا بين هذا الولد أو ذاك ، لقد أخذ النازيون الابن الأكبر لحاييم كالنسكى ··· وها هو الابن الأصغر دانيال ··· يذهب الى الموت هو الآخر ··

ولكن يائيل ··· وهى تمضى فى روايتها مقتفية أثر دانيال ··· تغيب عنها كلية صـــناعة هندسة الموت التى تفرضهـــا المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة على اليهود ··· فحينما تضع البندقية فى يد دانيال كالنسكى ··· وتضع المظلة فوق كتفيه ثم تطلقه فى طائرة .. لتهبط فى سيناء فى عدوان ٥٦ ليطعن قلب الرمال بالسونكى ·· فالمؤسسة العسكرية هى البديل الجديد للنازية ، وهى التى ترسل للموت بدانيال كالنسكى وغيره من اليهود ···

***

ها هو ذا دانيال كالنسكى يسترجع للمرة المليون شريط حياته ··· منذ أن أدار والده ظهره له وسلمه للنازيين ··· وانطلق بأخيه

الأكبر ··· ان دوامة من الضـــباب تبتلع ذكرى تلك الأيام التى أمضاها فى قبضة النازيين ... وها هو الآن يبحر من ميناء«باري» وفوق باخرة ترفع ساريتها العلم اليونانى .. لقد سكتت آخيرا مدافع الحرب العالمية الثانية ··· وها هو ذا يبحر مع غيرهمن الأطفال البولنديين الى شواطىء بلد آخر ، قال لهم مرافقهم فى الرحلة « وبلغة اليديش » أن اسم تلك البلاد فلسطين ··· أو أرض الميعاد بالنسبة لهم ··· ان دانيال لا يذكر كم كان عمره فى ذلك الوقت ··· وهو لا يذكر أيضا كل التفاصيل حول حياته فى وارسو ··· أو الملامح الخاصة لأمه ··· ولكنه كان يذكر شيئا واحدا والباخرة تشق البحر الى شواطىء فلسطين ··· يذكر تلك اللحظة التى كان فيها على والده أن يختار بينه وبين أخيه شموئيل ··· ان دانيال لا يكره أباه .. بل يحس بالحقد على أولئك الذين وضعوا اباه فى ذلك الموقف ··· طول مسافة الرحلة كان دانيـــال مصـــابا بدوار البحر ··· ولولا ذلك المرافق الذى اسمه « يورام » الأب ذو الألف طفل كما كانوا يسمونه فوق سطح الباخرة ... لولا عناية يورام وحدبه على أطفالهم ... لما وصـــل شواطىء فلسطين غير قليـــل منهم ····

وها هو أخيرا ـ بعـــد بعض الاجراءات الضرورية فى كيبوتز جلعاد ··· يصبح هو وغيره من الأطفال ··· ولقد كانوا جميعا فى السادسة أو السابعة من عمرهم ··· لا يعرفون حرفا واحدا من العبرية وكلهم يتكلم اليديش ، يصبحون أطفالا لا مواطنين ، وها هم يتلقون فى مدرسة المستعمرة أول دروس العبرية ···

ان دانيال لا يزال يذكر أول تجربة قاسية بالنسبة له في تلك المستعمرة ، حينما كان الأطفال ومدرستهم رفقة ومدرسهم «جوزيف» يحتفلون بعيد ميلاد أحد الأطفال ··· وبدأت المأساة حين سأله أحد الأطفال ، متى سيحتفل هو الآخر بعيد ميلاده ··· لقد خنقه البكاء

في تلك اللحظة ... ولكن دموعه تحجرت في عينيه ... انه لايريد أن يتذكر يوم ميلاده ولا يريد أن يتذكر شيئا عن تلك الأسرة التى ترتبط بذكرى الميلاد ... ومن أجل هذا كان دانيال يترعرع ويترعرع معه في الوقت نفسه ارادة الرفض لماضيه بكل تضاريسه الطبيعية ... كان يرفض أن يتحدث عن عائلته في وارسو كما طلب منه صديقه الكبير يورام أن يتذكر ولو أثاث بيته القديم في وارسو ... وكان يرفض أيضا أن يتكلم عن تجربته الدامية مع أبيه حينما كانت صديقته الصغيرة « ريتا » ، تطلب منه أن يحدثها عن والده أو والدته ...

لقد ذهبوا جميعا .. ماتوا ، فلماذا يريدون الآن وفي كيبوتز جلعاد أن ينبشوا قبر عائلته من جديد ... ؟

لقد كان الكيبوتز له هو كل شيء ، البيت والمدرسة والملعب وكان يورام بمثابة أخ أكبر له ... وهو قد تقبل تماما حياة الكيبوتز ولم يحس في أي يوم برغبة التمرد على هذه الحياة .. ان كيبوتز جلعاد هو القدر الجديد الذى عليه أن يعيشه ويواجه تحدياته .. لقد عرفت مدرسته رفقه ، ومدرسة جوزيف والأب الروحى للمستعمرة (يورام) كيف ينظمون ويرسمون حياة الأطفال في المستعمرة .. وكيف يهندسون أيامهم .. وحتى حينما ضبط دانيال متلبسا بممارسة العادة السرية خلف حائط المدرسة .. كتبت مدرسته في ملفه الخاص ، أن هذا راجع الى ماضى طفولته .. وليس الى عمره .. وقد بلغ الرابعة عشرة .. !

***

كلما مرت الأيام كانت العلاقة تتوطد أكثر بين دانيال وبين « يورام » من جهة ... وبينه وبين « رينا » من الجهة الأخرى ... ولكنه كان يحس دائما من خلال علاقته « بيورام » و « رينا » ! انه لم يكن يريد أبا ولا حبيبة من وراء هذه العلاقة ... انه لا يريد أن

يحول يورام الى أب ، ولا رينا الى حبيبة ··· أو زوجة ··· كان لا يريد أبدا أن يصبح أبا ··· وهو لا يعرف لماذا ، أو انه يعرف ولكنه لا يريد حتى أن يهمس لنفسه بما يعرفه ... كان يرفض أن يصبح أبا وهذا يكفى ··· انه ليس مطالبا أبدا أن يشرح هذا الرفض لأحـد ···

لقد استطاع أن ينسى فى المستعمرة كل شىء عن طفولته القديمة فى وارسو ، كل شىء عن والده وأمه ··· وأخيه الأكبر شموئيل ··· لقد ماتوا جميعا ، قتلوا فى معسكرات الاعتقال ··· وها هو ذا قـد أصبح فى كيبوتز جلعاد الفرع الوحيد البـاقى من شجرة الأسرة ، وهو يريد أن يظل ذلك الفرع فى شجرة المستعمرة ··· ويرفض أن يصبح شجرة مستقلة ···

ولكن ها هى ذى رينا تفـاجئه ··· بانها قد استمعت الى تسجيل صوتى لرسالة من والده ·· حاييم كالنسكى ·· وموجهة من راديو وارسو ··· وفى الرسالة الصوتية يوجه الأب نداءه الى كل من يعرف أية معلومات عن ولد له ··· اسمه دانيال كالنسكى··

··· لقد انتزعت رينا بهذا الخبر ، المسمار المغروس فى جبهة دانيال ··· لكى تدقه بين عينيه من جديد ··· لماذا لا تكتب رسالة لوالدك ، ان عليـك أن تفعل هذا ·· لقد ظلت رينا تلاحقه بهذا الطلب ··· وهو لا يدرى كيف يتخلص منها ··· لماذا ظهر أخيرا هذا الأب ··· وما الذى يريده منه الآن ··· ألا يستطيع الانسان أن يحيا بلا شبح .. ؟ أن يكون انسانا بلا ذاكرة ولا ذكريات .. ولكن ها هى ذى تلك الاسطوانة المشروخة تعود تدور والابرة تهتز فوقها ··· ومن خلال الموجات المتحركة فوق الاسطوانة ··· كان صوت والده يرتفع ··· لكى يضيف فصلا جديدا من فصول رواية « دانيال كالنسكى » ···

حينما مضى حاييم كالنسكى ويد ولده شموئيل ذائبة فى يده

كانت قد التصقت فوق عينيه كرباط من الجمر ، صورة ولده الآخر دانيال الذى تركه للنازيين ... هل تركه حقا ، هل فضل شموئيل عليه ... ؟ انه لا يريد أن يسترجع أبدا تفاصيل تلك اللحظة الدامية فى حياته ... لقد أخذوا دانيال رغما عنه ... كما اخذوا فيما بعد ولده شموئيل الذى بقى له ... وقبل الولد ... ساقوا زوجته الى زنزانة فى أحد معسكرات الاعتقال ... ثم تأكد له انها قد قضت نحبها ••• ثم جاء من يؤكد له ان شموئيل قد مات هو الآخر ••• وقبل مصرع الزوجة ومصرع شموئيل كان مصرع دانيال •

لقد وجد حاييم نفسه كشجرة تحمل جذورها فوق ظهرها وتسير ، ولا تعرف الى أين •• لقد انتهت الحرب بتحطيم الصليب المعقوف ، وها هو ذا حاييم يتبع جيش المارشال روكوسفسكى ، وحين سقطت وارسو فى يد الجيش الأحمر ، مضى حاييم لبيته ••• وكان أول ما فعله أن يبحث عن الذهب الذى دفنه فى ساحة البيت الخلفية فوجده كما هو .. وبدأ البحث عن المأوى والخبز والثياب والدفء ••• بدأ البحث عن خيط الحياة تحت الانقاض ••• وهكذا وفى مسيرة الجوع الطويلة التقى حاييم « بدورا » ••• لقد كانت تعمل فى مطبخ للحساء ، وكان المطبخ يتألف من حجرة ذات ثلاثة جدران ••• فقد أطارت قنبلة الجدار الرابع ••• ومن خلال رائحة الحساء المتصاعدة من الأطباق توطدت صداقة حاييم مع دورا ••• وتطورت الصداقة مع تطور العلاقة من مطبخ ذى ثلاثة جدران الى حجرة ••• ثم الى حجرتين ••• حتى انتهت بزواج حاييم من دورا ، وهكذا وجد حاييم نفسه أبا للمرة الثانية بعد أن ولدت دورا تلك الطفلة التى أطلقوا عليها اسم « ميريام » •

وبدأ حاييم يتطلع لأول مرة الى وجهه فى المرآة ••• لقد ازدادت التجاعيد وتحولت الى أخاديد ••• ليس فوق وجهه فقط ،

ولكن فوق سطح المرآة أيضا ··· ومن هنا أخذت « دورا » تحدثه حول الرحيل الى « اسرائيل » ··· حتى لا ترفرف سحابة رمادية ثانية من سحب أفران الغاز النازية فوق رأس ميريام ، كما رفرفت فوق رأس زوجته الأولى ورأسى والديه شموئيل ودانيال ··· ثم أخذت دورا تلح عليه الحاحا لا ينقطع ليوجه نداء الى كل من يعرف شيئا عن ولده « دانيال » الذى كانت تحيط بعض الشكوك حول موته ، فربما أفلت من المصيدة ، كما أفلت حاييم الأب ، وهكذا كتب حاييم النداء ، ثم أذيع ··· وتلقفته أذن « رينا » التى أسرعت به الى دانيال فى كيبوتز جلعاد ·

« والدى العزيز ···

انك تفهمنى حينما أقول ، كم هو صعب وقاس أن أكتب لك هذه الرسالة ··· اننى لا أتذكر الا القليل عن حياتنا معا ، ولابد أن يكون لدينا الشجاعة والحب لكى نبدأ من جديد ·

اننى سأرسل لك صورة فوتوغرافية لى ، لو كان هذا يسرك ··· أنا فى الثامنة عشرة الآن ··· وأعيش فى كيبوتز جلعاد ، فى المنطقة الحارة من وادى الأردن قرب النهر ·· والأرض رائعة الخصب ·· وسأنضم للجيش بعد أسبوعين لمدة سنتين ونصف ··· لقد اعتنوا بى كثيرا فى الكيبوتز ولم يجعلونى أحس أبدا اننى غريب ··· لقد تخرجت من مدرسة الكيبوتز هذا العام ·· اننى أقرأ كثيرا ... وصحتى جيدة ... لقد عرفت انك تزوجت ثانية وان لك ابنة ، وأريد أن أعرف أكثر عن عائلتك الجديدة ··· وأخيرا ··· أرجو أن تفكر ولو بعض الوقت لكى تترك بولندا نهائيا وتقيم فى (اسرائيل) · وكما سترى ··· فأنا أكتب لك بالعبرية الآن ··· فأنا قد نسيت كل شىء من لغتنا القديمة (اليديش) ··· وكل شىء أيضا عن وارسو ···

فى انتظار رسالتك ···

دانيال

••• لقد أصبح « دانيال كالنسكى » اذن « صاحب أرض ووطن » أصبح صاحب بيت ، يوجه الدعوة لأبيه ـ مواطن بولندا ـ لكى يرحل الى فلسطين ••• فهو الآن فى الثامنة عشرة من عمره ، وعضو عامل فى كيبوتز جلعاد ، وفوق كل هذا فعليه أن يقدم نفسه لمكان ما فى مبنى « وزارة الدفاع الاسرائيلية » ! ليصبح جنديا فى الجيش العامل ••• يحمل البندقية ويطلق الرصاص ، ويمارس بالتالى عضويته وانتماءه الكامل لهذا الشىء الذى قالوا له انه « اسرائيل » ••• !!! ويكتب دانيال لوالده حاييم يبشره بانخراطه فى سلك جنود المظلات ، ويرد حاييم عليه •••

يا ولدى •••

••• أحد أبناء أسرة كالنسكى يصبح جندى مظلة •• !! ان هـذا لا يمكن أن يصدق بسهولة ••• فجدك الأكبر كان تاجرا صغيرا فى «كراكاو » ••• وأجدادك الأوائل لم يقتربوا من الرب ••• كما تقترب انت الآن منه ••• فقمة ما وصلوا اليه كان سطح متجر ذى طوابق ثلاثة ••• ولكنك جندى باراشوت الآن ••• وهكذا أصبحت قريبا من الله أكثر من أبيك ومن أجدادك جميعا •• »

••• غير ان « دانيال كالنسكى » جندى المظلة الاسرائيلى لم يرتفع الى أعلى بمظلته ، لكى يكون قريبا من الله ••• فلم يرتفع دانيال بوصايا موسى ، ولا بنشيد الانشاد الذى لسليمان ••• لكنه ارتفع بوصايا موشى دايان ••• لكى يهبط والسونكى فى فمه ••• فوق أرض لم تكن ولن تكون له ••• لكى يفرد مظلته كالخيمة ••• بقوة الغصب والجريمة ••• المظلة التى لابد وأن تتحول الى كفن ذات يوم ••

ويعلو دانيال بالطائرة ••• ويهبط بالمظلة ••• وتمضى يائيل دايان فى تصوير أحاسيس بطلها دانيال :

لقد اكتشف دانيال السهولة التى يقتل بها (لم يكن يحس بالبهجة ولا بالكراهية حينما كان يقتل ··· ولم يكن حتى يشغل باله بالمبررات الخلقية التى تجعله يضغط بأصبعه على الزناد ··· لقد أصبح القتل وظيفة بالنسبة له ··· وهذا هو كل ما هنالك ··· لم تكن ترهق دانيال أية مسئولية من أى مستوى ··· ولم تكن تربطه بالوحدة التى انضم لها غير صداقته بشابين أحدهما يمنى والآخر هنغارى ··· وفى احدى الغارات قتل الشابان ··· وأحس دانيال لأول مرة بذلك المذاق الكريه للموت ··· وأحس للمرة الأولى أيضا بالخوف ، وأن البقاء على قيد الحياة يجب ألا يؤخذ كقضية ثابتة ··· وحينما انغمس دانيال فى غمرات معركة جديدة، لم يكن القتل بالنسبة له عملا وظائفيا هذه المرة ··· لقد أصبح الحقد كمسحوق البارود تحت أظافره ···

ـ هذه من أجل اليمنى ··· وهذه من أجل الهنغارى ···

رصاصة فى هذا الاتجاه ··· تعقبها صرخة ··· ورصاصة فى ذاك الاتجاه ... يعقبها سـكون كالصراخ ... ثم تتوالى الانفجارات ·

ان دانيال لا يمكن أن ينسى ذلك الصباح الذى اصطف فيه أفراد وحدته فى أعقاب مصرع صديقيه الجنديين ··· لقد وقف جنود الوحدة فى طابور ··· ووضع ضابط الوحدة ··· الأشياء التى تركوها خلفهما ·· فوق سرير كل واحد منهما ··· الجوارب ·· حزام من الجلد ·· بعض الأزار ·· بعض الكتب ·· هذا هو كل ما تركه الجنديان وراءهما ·· لدانيال ·· ولجنود الكتيبة ··

لقد انتقل دانيال الآن مع وحدته الى الجنوب ··· حيث كانت كتيبة يورام ··· وفى أوائل الربيع انضمت لهما « رينا » ···· لقد كانت تبدو رائعة فى ثياب المجندة برتبة « سرجنت » ·· وكان

يبدو لدانيال أن تعلقها بيورام ـ الذى أوشك أن ينهى فترة خدمته العسكرية ـ وقد تحول الى عاطفة جارفة ••• ولم يكن لدى دانيال الوقت الكافى لكى يفكر فى يورام أو رينا ••• فاسترجاع ذكرياته مع يورام أو رينا ••• كانت تشبه النوم على وسادة من أشـواك القنافذ ••• فالماضى كله كان بالنسبة الى دانيال يشبه جلد القنفذ ••• أو يشبه حيوان البحر الذى يسمونه « قنديل البحر » والذى يسبب الالتهاب فى كف من يلمس جلده الأبيض المشرب بالزرقة ••• ثم لماذا التفكير فى يورام وعلاقته برينا ••• وهو (دانيال) يوشك على الرحيل ••• حيث يتم تدريبه كضابط فى مدرسـة تدريب الضباط •••

ولا يدرى دانيال كيف ضربه اسم « نيشاما » فوق جبهته ••• كحجر يقذفه « مقـلاع » ••• فلقد عرف دانيـال تلك المجنـدة الاسرائيلية فى وحدته ••• ولم تكن « نيشاما » صاحبة الليلة الأولى فى السرير الأول فى حياته ••• فلقد كانت صاحبة الليلة الأولى والثانية والثالثة فى الحياة الجنسية لغالبية جنود الوحدة ••• ومع ذلك فلم يكن هناك من يذكر اسمها ••• كأن هنـاك ذلك الاتفاق السرى على كتمان الاسم ••• ودانيال يتذكر ليلته الأولى معها كما يتذكر وجه يورام أو رينـا ••• لقـد كان مجهدا حتى الاغماء ••• وكان يحس برغبة جامحة فى أن يضع رأسه على ذراع انسان ••• أن يحدق فى عينيه ••• أن يفضى له بتلك الكلمات السرية التى يحس بها والتى اذا لم يلفظها خنقته ••• لقـد أصبح دانيال يضيق بالحبر السرى الأبيض الذى كتبت به فصول حياته ••• ومدفوعا بكل هـذه العوامل ••• وملفوفا فى دوامتها •• انطلق دانيال الى « نشاما » ••• لقد كانت تعرف اسمه ••• وعلى مقعد فى حجرتها ألقى دانيال بجسده ••• وراح يحدق فى مصباح الكيروسين الذى يشتعل أمامه على المنضدة ... وهو يتسلل بعينيه

الى نشاما ··· وسقطت عينـاه على شـعرها ··· وانزلقت على عينيها ·· ثم على شفتيها ··· وتوقفت عيناه عند عنقها ··· ثم سارت العينان وهما تلهثان ··· وتمددتا فوق صدرها ··· وكأنما أحس دانيـال ان نشاما تلاحظ دوران عينيـه أو مسيرتهما ··· فانتفض في مقعده ··· وانزلقت عيناه على قدميه ···

ما الذى يريده دانيال من هذه المرأة ··· التى تعرف كل المجندين فى الوحدة ··· لا تعرفهم بالاسم فقط ··· ولكنها تعرفهم بالماضى والحاضر ··· وربما المستقبل أيضا ··· فهم سيختلف مصيرهم قليلا أو كثيرا عن مستقبل من كانت تحب ·· ؟ ثم قتل الرجل الذى تحبه ··· ومن يوم مصرعه وهى ترافق الوحدة التى قاتل فى صفوفها وقتل فى خنادقها ··· !

··· وأعطته نشاما فى تلك الليلة ··· « المرأة » الأولى فى حياته ... أعطته ذلك البريق اللاهث الذى ينبعث من عينى امرأة ... وهى تضاجع رجلا تراه لأول مرة ... ولا تعرف شيئا عنه ..

وحينما أنهى دانيال خدمته العسكرية ·· وعاد الى كيبوتز جلعـاد ··· كان كل ما عاد به ··· انه تدرب على القتـل ·· أصبح يعرف كيف يقتل ··· وأصبح يعرف أيضا كيف يضاجع امرأة ··· وفوق هذا وذاك تعلم أن عليه أن يقتل من أجل أن يظل على قيد الحياة ··· !!

لقد عاد دانيال يدور فى طاحونة الكيبوتز .. كما تدور حبات القمح قبل أن تتحول الى ذلك المسحوق الأبيض ··· ولأول مرة أحس دانيال أن الهوة بينه وبين بولندا تتسع يوما بعد يوم ··· وان دخان الديناميت الأصفر يوشـك أن يتحجر ويشـكل ذلك الجدار بينه وبين والده ــ حاييم كالنسكى فى وارسو ــ ورغم دخان

الديناميت المتحجر فلقد مضى دانيال يكتب لوالده ، يطلب منه أن يبادر بالرحيل الى اسرائيل ••• اذا أراد أن ينعم بشيخوخة هادئة ••• واذا أراد أيضا أن يرد اعتبار ـ زوجه وولده ـ اللذين سقطا تحت الصليب المعقوف وأن يعيد دفنهما ـ في التراب الاسرائيلى ؟!

ويمضى حاييم الأب يجيب على رسائل ولده دانيال•••شريط طويل ممتد من الرسائل قد أصبح يشكل جسرا بين وارسو وبين كيبوتز جلعاد ••• الاقتصاد في وارسو يهوى ! ••• « لابد وأن نصبر قليلا •• لا أزال أنتظر تأشيرة الخروج •• » « •• هل من الممكن أن أبدأ ولو بعمل صغير •• » فى اسرائيلك •• ؟

هكذا مضى حاييم يكتب ويسأل فى رسائله لولده دانيال••• فى الوقت الذى أعلنت فيه التعبئة العامة ••• وأوشك الأصبع أن يضغط على الزناد ••• وهكذا أصبح على دانيال أن يواجه يوما لا يملك فيه الا بضع ساعات قبل أن يرحل مع وحدته الى مكان••• حدد فيما بعد بكلمتين :

« الهـدف ••• سيناء » •

***

هذا هو اذن بطل يائيل دايان : دانيال كالنسكى ••• اللقيط الذى هرب مع مئات اللقطاء الى فلسطين ••• وترعرع فى كيبوتز جلعاد ••• ثم جند وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وفى العشرين أصبح ضابط مظلات ••• دانيال ••• الذى كان الماضى بالنسـبة له كجلد القنفذ ، والقتل وظيفته ••• ثم يتحول القتل بالنسبة له الى مسئولية ••• ومسئوليته الآن قد حددت فى سيناء ••• ملاحظة لابد منها الآن ••• ان يائيل دايان كانت تكتب عن كثب •• ودانيال كالنسكى لم يكن صورة ذهنية مجردة ، ولا رجلا قد استنبتته من بطون الكتب ••• ولا أخرجته من تحت وسادتها ، ولم تقم بالبحث

عنه تحت قوائم سريرها ••• فهو وان كان يحمل اسما مستعارا ولا شك ــ هو دانيال كالنسكي ــ الا انه هذا الجندى الاسرائيلي أو ذاك ••• فى جيش الدفاع الاسرائيلي •• ! لقد كانت يائيل ترافق غزوة سيناء كمجندة ... فلم تكن تكتب اذن من الذاكرة ... ولم تكن تتصور الأحداث ••• بعد هذه الملاحظة ••• لنترك يائيل تواصل رحلتها مع دانيال كالنسكي فى عدوان سيناء ••

***

للمرة الثانية أخذ « دانيال كالنسكي يجرب مسئولية القتل فى سيناء•••وكلما رأى الدم يسيل وتطايرت حوله الاشلاء وأصغى الى صرخات الذين يصيبهم الرصاص فجأة فى رءوسهم أو صدورهم ••• أحس أنه اندمج أكثر فى دوره كمحارب ــ فى جيش الدفاع الاسرائيلي ــ فلقد كانت الحرب بالنسبة له ولغيره من جنود وحدته ، مجموعة من الديكورات ••• وذلك السيناريو غير المكتوب ، والذى يرتجل كل محارب فى الوحدة الكلمات التى عليه أن يقولها ••• ويبلغ الارتجال أوجه ــ حينما يسقط رجل الى جوارك فى الظلام ••• رجل لا تتبين وجهه ولا تعرف لغته ــ فالمحاربون يقاتلون ــ وهم صامتون ــ وفى بعض الأحيان تنطلق من صدورهم بعض الزمجرات ــ أى انهم ــ فى معظم الأحوال ــ يصرخون ولا يتكلمون ــ وهذا ما حدث تماما «لدانيال» حينما سقط أحد الرجال الى جانبه ، فانحنى على الرجل المصاب وحمله •• وانطلق به الى قاعدته ••• وبعد تلك المسيرة الطويلة ــ تبين دانيال ــ انه كان يحمل محاربا عدوا » ••• فما كان منه الا أن ألقى به أرضا وانطلق الى خندقه ••• فلم يكن لدى دانيال لا الرغبة ولا الوقت لتضميد جراح محارب من الجنود المصريين ••• ؟!!! وفى طريق عودته ، رأى دانيال الوحدة الاسرائيلية الثالثة تتقدم ، وكان على رأسها « يورام » ••• وحينما تعلقت به عينا دانيال ••• لم

يحس بأى نبضة جسد تصطك فى داخله ... ضد الرجل الذى أصبح حبيب صديقته الأولى رينا ـ ورفيقة أيامه فى كيبوتز جلعاد ـ فدانيال يعرف قبل غيره ، انه لا يريد أن يقيم أية علاقة ثابتة أو متحركة بأية امرأة ... فهو غير راغب فى اقامة أى جسر من الذكريات بينه وبين أحد .. لا الذكريات .. ولا العاطفة المشبوبة .. حتى بالنسبة الى والده الذى لا يزال يقيم فى وارسو .. والذى يحزم حقائبه الآن ويتحسس بيده جواز سفره ... وفى أحد أوراقه تأشيرة الخروج من وارسو ... فلم يكن دانيال يحس بأية رغبة فى مواصلة التفكير .. فى هذا الطارق الجديد ـ الذى هو والده ـ والذى أحدث ظهوره ذلك الشرخ الذى لا يمكن أن يضمد فى مرآة حياته ...

***

ان المغامرة ... هى دائما طوق النجاة ... أو تجىء متدلية كالحبل بالنسبة الى محارب كدانيال كالنسكى ، فأنت تتذكر مادمت عاطلا عن العمل ... والمطلوب من المحارب أن يكون رجلا بلا ذاكرة ... فأخطر ما يتعرض له المحارب ... أن يتذكر .. وجوه الذين قتلهم من الأعداء... أو وجوه الأصدقاء الذين يسقطون حوله ... فى الخندق الواحد ... وحتى لو برز هذا الوجه أو ذاك من وجوه الأعداء ... وحتى لو طفا فوق السطح ... فهو لن يضيف جديدا الى الذاكرة ... فكونك لا تعرف من تقتل يسهل مسئولية القتل ...

... وجاءت التعليمات الجديدة ... وكانت المعلومات تقضى بأن يقوم دانيال ومجموعة من جنوده لكى يتفقدوا جسرا على الوادى .. قبل أن يشقوا طريقهم الى القتال ... وكان ذاك الصباح ... هو أول صباح يسير فيه دانيال جنبا الى جنب مع صديقه القديم يورام .... ولكنهما هذه المرة يسيران فوق أرض

جديدة ... هى أرض سيناء .... وليس فوق أرض كيبوتز جلعاد ... كما كانا يفعلان دائما ... وهنا فوق رمال سيناء لاتستطيع الذكريات القديمة أن تترعرع .. وأن ترتفع بسيقانها الخضراء وتتمايل بأوراقها الصغيرة فوق الرمال الجرداء ... كان كل شيء كسراب الصحراء بالنسبة الى دانيال ... رينا ... وحاييم كالنسكى .. ميريام .. وحتى أشجار كيبوتز جلعاد .. ومع ذلك أحس دانيال .. ان هناك رمالا تتحرك فى اعماق يورام ... وتوشك أن تتحول الى زوبعة رملية ... كان يورام يريد أن يقول شيئا ... وانطلق صوته أخيرا ...

ـ دعنى أقوم بتفتيش الجسر بدلا منك ... لقد أتيت مع وحدتى بعد انتهاء المعركة ... وكما ترى فأنا عاطل عن العمل الآن ... وعملية تفتيش الجسر ستزيح أكثر من عبء عن كاهلى .

هو ذا .. ولأكثر من مرة .. يطلب يورام منه ، أن يقوم بانجاز مهمة .. أوكل له انجازها .. حتى بالنسبة الى « رينا » .. فلقد خيل لدانيال .. ان يورام قام بمهمة حبها .. وأن يصبح زوجا لها .. نيابة عنه .. ولفرط ما تعود دانيال على هذا الوضع مع يورام .. فلم يمانع .. بل لم يفتح فمه بكلمة واحدة ... فكل ما يذكره الآن .. ان المسألة لم تستغرق غير دقيقة أو أقل .. فبينما هو واقف وعيناه تكتسحان الجسر .. ويورام قد أخذ يخطو خطواته الأولى فوق الواحه ... اذا بدوى الانفجار يصم الآذان ... وألواح الجسر تتطاير .. والدخان ينعقد سحابة فوق الجسر .. ويورام يتطوح .. ويسقط فوق وجهه .. وحينما قفز دانيال وأصبح الى جواره .. خيل الى دانيال أن كل شيء قد انتهى .. فساقا يورام قد سحقتا تماما .. والدم يغطى جسده .. وعبثا حاول أن يقول ليورام :

ـ ان كل شيء سيكون على مايرام ...

ـ انه لن يموت •••

هذا هو كل ما استطاع أن يؤكده يورام لطبيب الوحدة •• الذى كان كل ما أجاب به •••

ـ لو استطعنا أن نعيد معدته ثانية الى بطنه ••• ! وللمرة الثانية يصرخ دانيال ••••

ـ ولكن يورام ••• لا يستطيع أن يموت •••

***

ولكن كل شيء قد أخذ يصفر ويذبل في عيني دانيال ••• وحينما أفضى لقائد الوحدة برغبته فى العودة الى « بئر السبع » •• ليكون الى جوار يورام فى المستشفى العسكرى •• الذى نقل اليه بالكيوبتز •• غرس القائد عينيه فى وجهه •• وانطلق صوته كأنه يجيء من مكان بعيد :

ـ ولكننا لا نزال فى أوائل الطريق ••

••• وفى الطائرة التى أقلت دانيال من جبهة سيناء الى بئر السبع ، كان دانيال فى شبه غيبوبة ••• كأنه لايريد أن تقع عيناه على أحد .. وعلى رينا بالذات .. ما الذى سوف تقوله عنه .. هل قبل أن يقوم يورام بالمهمة التى أوكلت له .. لكى يتخلص منه .. أو أن رغبة الخلاص من يورام ، كانت رغبة دفينة فى أعماقه •• هل هى جريمته أنه قبل طلب يورام .. ؟ ألا يحدث هذا عادة فى الحرب كما قال له قائد الوحدة .. ها هى بئر السبع تلوح من شباك الطائرة .. فما الذى عاد به .. لقد سبقه الى هذه المدينة صديق عمره دانيال •• سبقه بساقيه المهشمتين •• وبأمعائه التى خرجت من بطنه •• لقد انتصروا فى سيناء •• انتصروا فى يوم أو يومين •• سيناء التى تاه فوق رمالها « موسى » •• أربعين عاما

•• انهم لم يضلوا الطريق فوق كثبانها •• فلقد كانت البوصلة الهادية هـــذه المرة هى : البندقية •• فهل ستظل البندقية هى البوصلة ••• ؟!!!

••• وفى أحد ممرات المستشفى العسكرى ببئر السبع •• التقى دانيال برينا •• وحينما طلبت منه أن يروى لها كيف أصيب يورام •• أوشك دانيال أن يجهش بالبكاء •• وحتى حينما رأته « نشاما » صديقة الجنود •• وربتت على كتفه وهى تقول :

– ولكننا انصرنا •• وسيهبط ملاك السلام ثانية فوق هذه الأرض ••

أحس دانيال أنه لا يفهم هذه الكلمة التى اسمها السلام .. وأحس أيضا .. أن الشيطان وحده وليس الملاك هو الذى سيظل يهبط بمظلته ..

••• ما الذى يستطيع أن يقدمه ليورام •• غير دمه •• وكان يتمنى وقد ربطوا ذراعه •• ونفذ سن الابرة فيها •• كان يتمنى وهو ينظر الى تلك الآنية من الزجاج التى أخذ دمه يملؤهـا •• أن يظل ينزف وينزف .. وألا يتوقف عن النزيف حتى يأتى من يقول له : ان دمه قد انقذ .. يورام ..

***

••• ولقد عاد والده الآن •• عاد منذ وقت لا يستطيع دانيال أن يحدده •• عاد حاييم كالنسكى هو وزوجته وابنته •• ورغم أن بئر السبع لم تكن وارسو •• فقد بدأ حاييم يمارس حياته الجديدة •• ولم يكن دانيال مقتنعا أبدا بأسلوب حياة والده •• وأسلوب عمله •• وحينما أحس حاييم بنوبات الألم تعاوده •• ونقلوه الى المستشفى •• كان يرفض أن يفتح الصـحف والمجلات البولندية التى كانت دورا زوجته تحملها له •• كان يبدو ناقما على كل شىء

•• على الصحف البولندية •• وعلى بئر السبع •• وعلى دورا ••
وعلى ميريام ـ ابنته منها ـ وعلى دانيال أيضا ••

وكان دانيال يعلم تماما من خلال تقارير الأطباء •• وفي أعقاب أكثر من فحص بالاشعة •• ان والده لن يستطيع أن يغادر سريره ويخرج من بوابة المستشفى على قدميه •• ان ذاك الحيوان الذي اسمه السرطان •• قد أمسك بتلابيبه ولن يتركه أبدا •• فما الذى قدمه دانيال الابن لحاييم الأب .. أقنعه بأن يهجر وارسو الى اسرائيل •• لكى يقدم له أرضا فى طول قامته تصبح قبره •• لو استطاع دانيال أن يقنع والده بشىء •• يموت قرير العين من أجله •• ولكن أين هو ذلك الشىء ••؟ هل هو ساقا يورام المهشمتان •• هل هو عينا رينا •• اللتان تحولتا الى كرتين من الدم •• ؟ هل هو أصدقاؤه الذين رآهم يموتون فوق رمال سيناء ؟ . هل هو السلام . . الذى خرجت أمعاؤه من بطنه وأصبحت كالرايات الممزقة فوق حد السونكى •• هل هو ذلك الشىء •• دانيال نفسه •• الذى لا يستطيع أن يقدم لنفسه ذلك الشىء الذى يطلبه لوالده •• ذلك الشىء الذى يستطيع أن يجعله هو ـ دانيال ـ يموت قرير العين من أجله •• كما مات يورام •• بعد نزيف استمر أيام •• وبعد غيبوبة طويلة •• لقد مات يورام أخيرا •• أطاح به ذلك اللغم تحت الجسر فوق ذلك الوادى •• وكان المفروض أن يطيح به هو •• دانيال •• فلماذا أبقى يورام على حياته •• هل أبقى على تلك الحياة من أجل أن يربط من جديد بينه وبين رينا •• أم أبقى عليه لكى يصنع بأشلائه ذلك الجسر لكى يلتقى فوقه دانيال الابن ـ بحاييم الأب ـ وبعد فراق عشرين عاما •• ؟ واحد يموت من أجل أن يربط الآخر بعضهم البعض •• والآخر يعيش من أجل أن يلعب دوره فى اللقاء •• هذه هى المعادلة اذن •• ولكنها بالنسبة لدانيال، تلك المعادلة الكريهة •• التى لا يؤمن بها ولا يحبها •• فهل لقاؤه

بوالده يوازى تضحية يورام ·· وأى لقاء بعد عشرين عاما ·· أى لقاء بين الأب وبين الابن .. ؟ .

ان دانيال يذكر يوم اللقاء بأبيه ·· كأنه حدث قبل دقائق ·· أو كأنه يحدث الآن ·· رجلان يواجهان بعضهما البعض ·· والمفروض أن أحد الرجلين هو الأب ·· والرجل الثانى هو الابن ·· واحد يتكلم اليديش ·· والثانى يتكلم العبرية ·· وأحس دانيال لسبب لا يعرفه ان المطلوب منه أن يمثل دور الابن ·· كما أن المطلوب من حاييم أن يمثل دور الأب ·· وان كل واحد يمثل دورا ·· هو ووالده ·· ويورام ·· ورينا ·· ونشاما .. وان الحرب هى الأخرى جزء من التمثيلية ·· حتى ذلك اللقاء ·· أول لقاء بينه وبين والده ·· والذى تم ذات صباح ·· ذات صباح ..

***

ـ هذا هو والدك حاييم كالنسكى يا دانيال ·· وهذه هى أسرته ·· سأترككم الآن ··

لقد كان مجرد صوت ·· يقدم واحدا للآخر ·· ان دانيال يتذكر الآن أن الخطوة الأولى كانت من والده .. وانه بادر بمد يده الى ولده ·· ودانيال يتذكر جيدا ان يد والده ظلت معلقة فى الهواء ·· فلم يخرج دانيال يده من جيبه ··

لقد أغلق دانيال عينيه بعد ذلك وأحس بالعرق يتصبب من جبين والده ·· فى الوقت الذى تنهدت فيه دورا وهى تقبل دانيال فوق جبينه ·· بينما وقفت ابنتها ميريام فى وسط الحجرة ·· لا تدرى كيف تتصرف ·· وقد توهج خداها ·· وانقاذا للموقف ·· امتـــدت ذراعا دانيال وطوق بهما والده ·· ولا يدرى كيف انطلقت من فمه تلك الكلمة :

ـ أبتى ···

وانفجر حاييم فى البكاء •• وقد ألقى برأسه فوق كتفى والده •• ثم ما أسرع ما انتهى من كل شيء •• الدهشة •• والاضطراب •• والخوف •• والترصد •• وومضات البرق الأولى التى تسبق الانفجار .. وحتى حينما قال حاييم للمترجم الذى يقف بينه وبين ولده ••

ـ قل لدانيال اننى ما رحلت من وارسو الا من أجله ..

أحس دانيال « بالقرف » من والده •• وكأنه كان يريد منه أن يقول : انه رحل عن أسرائيل من أجل شيء آخر .. فدانيال غير راغب فى أى احساس بالمسئولية تجاه أحد .. كان على حاييم أن يهجر وارسو الى اسرائيل •• من أجل أن يتحمل مسئوليتـه هو •• تجاه شيء أكبر من دانيال •• ولكن دانيال نفسه لا يعرف هذا الشيء وما هو كنهه .. ؟ !!!

***

وأخيرا •• ها هو ذا حاييم يموت متحملا مسئوليته •• أو ان السرطان قد تحمل مسئولية القضاء عليه •• وهكذا لم يبق لدانيال بعد موت والده غير ذكرى جنازة جديدة تسير .. وغير قبر يفتح •• وتراب بئر السبع وهو ينهال فوق حاييم بدل تراب وارسو ••

***

فى لحظات الفاجعة •• حين يسقط الانسان تحت الانقاض •• أو فى أعمال منجم •• ويصبح خيط الهواء أثمن من جذع شجرة من الذهب الخالص •• يمضى الانسـان يبحث عن ذلك الخيط من الهواء ••

وحينما التقطه دانيال •• قاده ذلك الخيط الى حجرة «نشاما» كانت مثله تعانى الوحدة وتمارسها •• ومثلها أيضا كانت

الذكريات لا تترسب فى قاع كأسها ·· كى لا تتحجر أجساد الجنود فوق سريرها ·· ولا تتجمد ظلالهم فوق سجادة حجرتها ·· ولكن نشاما أصبحت كالخمرة الرديئة بالنسبة الى دانيال ·· لاتترك خلفها الا الصداع ·· ان صديقة الجنود القديمة ، ذات الجلد الوردى ·· قد أخذت التجاعيد تدب الى وجهها ·· وأصبح جسدها غير قادر على تفجير الينابيع أو النوافير ·· وحينما روت له نشاما قصة ذلك الجندى الصغير ·· الذى جاء يطرق بابها ·· كانت المرة الأولى التى ينام فيها مع امرأة ·· فلم تملك غير أن تنفجر ضاحكة ·· وقد توردت وجنتا الجندى الصغير من فرط الخجل ·· ولم يكن يعرف ماذا يفعل ·· انطلقت نشاما تضحك ·· وأجهش الجندى الصغير فى البكاء ·· ثم نهض وارتدى ثيابه فى الحمام ورحل ولم يعد ·· وحينما روت نشاما لدانيال مأساة ذلك الجندى ·· أحس دانيال أن عليه هو الآخر أن ينهض .. أن ينخرط في البكاء .. وأن يرحل ·· بلا عودة الى هذا الجحر ·· لقد أصبحت نشاما كاللبؤة العجوز .. التى تبحث عن صيد .. ولم يعد فى امكانها أن تعطيه ذلك المخدر ولو لبضع ساعات ·· فهل تستطيع « رينا » أن تحقنه بذلك المصل ·· هل تستطيع أن تقدم له خيط الهواء أو ومضة البرق .. أو الوسادة التى ليس تحتها أصبع ديناميت.. أو السرير الذى ليس تحت قوائمه ذلك اللغم الذى أطاح بيورام ·· ولكن الألغام قد بثت فى كل مكان ·· وكأنها قد وزعت بالعدل والقسطاس ·· لغمان معلقان بأهداب « رينا » ·· لغم تحت تراب قبر يورام ·· يختبىء بين الزهور ·· لغم تحت تراب قبر والده ·· وحقل ألغام ·· يحمله هو ·· دانيال كالنسكى فى جيوب معطفه وسرواله ·· وتحت جلده أيضا ··

الفصل الرابع

الجزء الأول

ملاحظات حول..

دانيال كالنسكي

... السؤال الذى يطرح نفسه الآن ، ما هى القضية التى تطرحها يائيل دايان من خلال روايتها «ولدان للموت» ؟ .. هل هى قضية الاختيار الصعب بين شموئيل ودانيال بالنسبة لحاييم كالنسكى الاب ، وبالتالى وضع العمل الروائى كله فى قالب الفاجعة الدعائية السياسية والمزيد من اللعب فوق حبال المعتقلات النازية .. ؟ هل هى قضية العلاقة بين جيلين اسرائيليين مختلفين تماما .. هما جيل حاييم كالنسكى الاب ـ الذى لا يملك أن يقدم لاسرائيل غير السرطان الذى قضى عليه ـ وجيل دانيال كالنسكى الابن الذى ترعرع وهو طفل فوق أرض كيبوتز جلعاد ، الابن الذى انقطعت عبر عشرين عاما كل صلة روحية أو وجدانية أو تاريخية كانت تربطه ـ وهو لم يزل فى الخامسة من عمره ـ بوارسو ـ العاصمة التى ولد فيها والتى هرب من أحد معسكرات اعتقالها النازية الى فلسطين ـ وبالتالى أصبحت تلك الارض التى آوته ، والتى قالوا

له ان اسمها اسرائيل ، هي المتراس الذى عليه أن يدافع عنه حتى الموت ٠٠؟ أم ان القضية التى حاولت يائيل دايان طرحها أكثر بعدا من قضية الاضطهاد النازى وأكثر بعدا أيضا من قضية الصراع بين الجيل اليهودى القديم والجيل الاسرائيلى الجديد ٠٠؟

فى تقديرى ـ المسألة أكثر تعقيدا من هـذا وذاك ، ٠٠ والمسألة أكثر تعقيدا لا لأن يائيل دايان أرادت أن تعقد قضية (البطل الاسرائيلى) الذى تنشده وتكتب عنه ، بل لأن التعقيد مفروض على يائيل دانيال ورغم أنفها أيضا ٠٠ فمن زاوية التكوين النفسي والفكرى والوجدانى للانسان ، ومن زاوية صياغته ـ فنيا ـ فانه لا يكفى أبدا ، أن تستجلب طفلا فى الخامسة ، تنقله كالنبتة الصغيرة من أرضه التى غرس فيها ، الى «مشتل» جديد ، ثم تحاول أن تجعله يترعرع كما تريد ، أن يتثقف بالكتب التى تقدمها له ، أن يدرس التاريخ على ضوء المنهج الذى تحدده ، أن تعمل على قطع صلاته بكل ما يربطه بتراثه التاريخى ، أن تلهب روحه أبدا بسياط الحقد والكراهية ٠٠ ثم تطلقه بعد كل هذا ٠٠ وتطلب منه أن يكون انسانا فى بساطة السنبلة ٠٠ وفى رقة الشعاع ٠٠ أعتقد ان مثل هذه المعادلة للانسان ، لا يمكن أن تنجح فى خلق انسان ، ولايمكن أن تنجح أيضا فى تكوين آدميين حسب الطلب ـ وعلى ضوء مواصفات معينة ٠٠ وهذه هى مأساة يائيل دايان ٠٠ ؟ وهذه هى أيضا مأساة بطلها دانيال كالنسكى ، وهذه للمرة الثالثة مأساة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية التى تحاول بالوسائل الاصطناعية تكوين مواطنين لتلك الدولة التى ترفع علمها فى السارية ٠٠

فما هى ملامح الشخصيات الرئيسية التى قدمتها يائيل فى روايتها ٠٠ ؟ هناك شخصية دانيال كالنسكى ٠٠ الذى هربوه وهو فى الخامسة ٠٠ وزرعوه فى كيبوتز جلعاد ـ وصاغوه ثقافة وتاريخا وأسلوب حياة كما يريدون ٠٠ ثم جندوه وهو فى الثامنة عشرة ٠٠

ودربوه على القتل كجندى مظلى ·· ووضعوا فى طريقه من النساء رينا .. ونشاما ..الخ.ومن الرجال يورام ..ثم جاءوا له بأبيه بعد فراق أكثر من عشرين عاما ·· وقدمته يائيل تقديما سيمفونيا فاجعا ·· حينما فرضت على والده أن يختار بينه وبين أخيه الاكبر. ورأيناه عبر الرواية يرفض أن يكون أبا ·· لانه لا يريد أن يفرض عليه الاختيار لو انجب أولادا هو الآخر ـ أن يختار بين ونديه ـ وهنا توحى يائيل بان الذين سيفرضون الاختيار الرهيب على دانيال، ليس النازيون ـ ولكن العرب ··؟!! كأنما تريد أن تضع ولو ملامح لعقدة دانيال السادية ·· دانيال الذى يعذب نفسه ويعذب والده خلال علاقته به ـ ويعذب رينا ـ برفض حبهـا ـ ويحمل نفسه مسئولية مصرع صديقه يورام ·· ثم بعد كل هذا ·· لا ينتهى الى شىء ·· فهو يدور دائما فى طاحونة الفراغ ·· والبحث عن عالم مفقود ·· والسلام رغم كل هذا لا يجىء ·· والملل يمسك بتلابيبه، والحرب هى وحدها التى تستطيع أن تنقذه ·· وتذود طائر الوحدة والعذاب والسأم عن كتفية .. الحرب .. والجنس ـ فوق سرير نشاما ـ هما حبلا النجاة .. والنافذتان الوحيدتان المفتوحتان فى جدار دانيـال كالنسكى ·· الذى ينتهى كل من كانت تربطه به علاقة صداقة أو حب الى مقبرة بئر السبع ·· يورام ·· صديقه ورائده ·· ثم والده ·· حاييم كالنسكى ··

هنا نحن اذن أمام شخصية معقدة .. ورافضة أيضـا ومتمردة لو صح التعبير .. ولكن السؤال الكبير الذى يطـرح نفسه هو جوهر هـذا الرفض والترد .. ولماذا كان التعقيد فى شخصية دانيال كالنسكى .. ؟ !!

ان عقدة دانيـال ·· لم تكن بفعل جريمة النازيين الذين فرضوا الاختيار الرهيب على والده ·· فدانيـال تخلص من هذه العقدة ·· حينما صمم على التخلص من كل ما يربطه بماضيه ··

ومن المسئولين أيضا عن هذا الماضى ٠٠ وحتى حينما يكتب لأبيه ، فهو يكتب مرغما على هذا ٠٠ وفى طول الرواية وعرضها ٠٠ فى شمالها وجنوبها ٠٠ وشرقها وغربها ٠٠ لا تعثر على خيط حقد واحد ضد النازية فى حياة دانيال كالنسكى ٠٠ وكأن فى كيبوتز جلعاد ٠٠ متسع للرحمة ٠٠ وكأن كيبوتز جلعاد ـ هو المطهر ٠٠ الذى يغتسل فيه الاسرائيليون ـ من نوازع ومشاعر الحقد على النازية ٠٠ لكى تزرع فيهم نوازع ومشاعر الحقد على العرب ٠٠ منذ نعومة أظفارهم ٠٠ وأعتقد ان هذا هو دور الكيبوتز فى حياة الاسرائيلى من مواليد ١٩٤٨ ، أن تصوغه من جديد وهو طفل فى الخامسة أو السادسة ٠٠، أن تبعده الى أقصى حد عن كتاب التاريخ الأسود ٠٠ عن معسكرات الاعتقال النازية ، وأن تقربه الى أقصى حد من كتاب الحقد على العرب وكراهيتهم ٠٠ فحينما يحدق دانيال فى وجه الجندى الجريح الذى حمله لمسافة بعيدة ٠٠ وتبين انه جندى عربى مصرى ، يلقى به أرضا ويواصل سيره لقاعدته ٠٠ أما بالنسبة لقضيتى الرفض والتمرد فهو ليس رفع الراية فى وجه اسرائيل أو الكيبوتز ٠٠ أو الحرب ٠٠ أو الذين جندوه ٠٠ وأرسلوه للموت٠٠ أو الذين بعثوا بصديق نشاما لخندق الموت ، وبالتالى حولوها من امرأة ٠٠ الى مومس ٠٠

لقد كانت يائيل حريصة تماما على أن يسير التمرد والرفض ـ فى الاطار الذاتى ـ لبطلها دانيال كالنسكى ٠٠ وألا يتخطاه ٠٠ وكانت شخصية دانيال كالنسكى ٠٠ قد نبتت من تلقاء نفسها وخرجت من الارض فجأة ٠٠ وانها ليست محكومة أبدا بقوانين المجتمع الذى تتحرك فى اطاره .. وفى الاتجاهات الأربعة لرواية « ولدان للموت » فى الاتجاهات الرئيسية والاتجاهات الفرعية للرواية ، فنحن لا نعثر على خط نقدى واحد ، لأى مسار صغير أو كبير ، لأى جانب من جوانب الحياة فى اسرائيل .. وكانت يائيل

دانيال قد أصدرت الحكم على بطلها ·· بأنه هو وحده المسئول عن كل شيء في حياته ·· وحتى عن معادلة صياغته كانسان ·

ولعل هذه الرواية تفتح زاوية جديدة من زوايا التفكير ـ في اسرائيل العدو ـ الذى نحاربه ·· وأنا لا نستخلص أبدا النتائج الوردية أو الطوباوية من هذه الرواية أو تلك ·· وأن نخرج بعد القراءة قائلين : مادام هنـــاك رفض وتمـــرد ·· بالنســبة لهذه الشخصية أو تلك ·· فهناك اذن فرصة للانهيار ـ أو فرصة لانتقال الشخصية الاسرائيلية المحاربة ـ من خنادق جيش الدفاع الاسرائيلى الى جبهة المقاومة العربية الفلسطينية ·· فلقد وضع دانيال كالنسكى نفسه القضية فى اتجاه آخر مضاد حينما قال فى سيناء ··

ـ لقد تاه موسى أربعين عاما ·· ولــكننا استطعنا أن نشق مسالكنا وأن لا نتوه ·· فالبندقية كانت البوصلة الهادية وستظل·

··· وما لم تتحطم البندقية أولا فى يد دانيال كالنسكى·· ما لم يفقد هو وغيره تلك البوصلة ·· فسيظل دانيال فى موقعه·· يضغط باصبعه على الزناد ·· بعد أن أصبح القتل بالنسبة له ـ قتل العرب بالطبع ـ وظيفة ومسئولية ·· حياة ووجودا ··

الجزء الثاني

ليس من الآن.. ليس من هناك

ليهودا إميحاي

••• هل هى من قبيل المصادفة أن تلتقى الروائية الاسرائيلية يائيل دانيـــال ، بالروائى الاسرائيلى يهودا اميهاى ، فيما يتعلق يغسل ذاكرة .. الاسرائيلى من مواليـد ١٩٤٨ ـ من كل آثام المذابح النازية .. وأن تلقى بسنابل القمح التى حصدتها بيديها من أحد حقول كيبوتز جلعاد ـ وفى طاحونة زميلها الروائى يهودا اميهاى كاتب رواية « ليس من الآن .. ليس من هناك » ؟!

••• من الممكن أن يكتب كاتبان أو ثلاثة فى موضوع واحد، وأن يتناولوه من زواياه المختلفة •• يتفقان ويختلفان فى هذا الخط أو ذاك •• أو فى ملامح هذه الشخصية أو تلك ، ولـــكن هل من الممكن أن يصلوا جميعا الى نهاية واحدة •• والى مصير واحد لمختلف الشخصيات •• والى كلمات واحدة يقولونها قبل أن يسدل الستار.

ان العدمية ولا شك جزء من التـــكوين الاســـاسى للرواية

الاسرائيلية المعاصرة ٠٠ ولكن العدمية نفسها لها قانونها الذى يحكمها ويحدد خط مسارها ٠٠ أى أن العدمية لا تنطلق تلقائيا ـ بقوة الدفع الذاتى للأشياء ـ ولا تنتهى عفويا أيضا وبقوة تلاشى واضمحلال عوامل الدفع ٠٠ وقد تفرض العدمية نفسها على يائيل وعلى شخوص رواياتها وقصصها ، وقد تفرض نفسها أيضا على يهودا اميهاى وعلى غيره من الروائين الاسرائيلين ، ولكن القضية المفتوحة والسؤال المفتوح أيضا ٠٠ ماالذى تقدمه هذه العدمية من الايجـــابيات ٠٠ هل فى اتجـــاه أن استمرار وجـــود المغتصبين كمغتصبين ٠٠ هو الخط الرئيسى فى «العدمية» ٠٠ وأن المخرج هو الغاء الوجود العدوانى للاغتصاب والقتل والجريمة ٠٠؟ أم أنه ذلك الاتجاه الذى يستبدل الوجه النازى بالوجه العربى ، والصليب المعقوف بالراية العربية ويقول للاسرائيلين .. انه باطل الاباطيل وقبض الريح ٠٠ الصراع ضد التـــاريخ الأسود للنازية ٠٠ وضد ورثتها الجدد ٠٠ ـ فى الرايخ الالمانى الرابع فى بون ـ وأن لا مصلحة لأحد من الاسرائيلين فى استمرار الصراع مع ورثة الصلبان المعقوفة وسراديب التعذيب وغرف الغاز ٠٠ بل على العكس من هذا كله ٠٠ ففى ذلك الصراع مضـــيعة للوقت الاسرائيلى ، وتمزيق للجهد الاسرائيلى ٠٠ وملهاة للاسرائيلين أنفسهم وابعـــادهم عن العدو الرئيسى الواحد ٠٠ الذى هو العرب ٠٠

ان يهودا اميهاى يقدم نفسه الآن ، ويقدم روايته ، « ليس من الآن ٠٠ ليس من هنا » ٠٠ فما الذى تريد أن تقوله الرواية٠٠ التى يعتبرها نقـــاد «الكويش كرونيكل» ٠٠ ذروة ما وصلت اليه الرواية الاسرائيلية القصيرة ، من الصفاء الروحى والنضوج الفكرى٠ وأعلى أشكال التكنيك ٠٠ ؟!!

أن مجلة الجويش كرونيكل ، الناطقة بالانجليزية ـ والتى تصدر فى لندن ـ تحمل وجهة نظر المؤسسة العسكرية فىاسرائيل ـ

وتحمل أيضا كل قسمات وجه الحركة الصهيونية العالمية ، تقدم رواية يهودا اميهاى فى عددها الصادر فى يونيو ١٩٦٩ الذى يحمل رقم ٥٢٢٦ وضمن مقال يحمل عنوان «اسرائيل •• كما ترى الدياسبورا » •• وتوقيع الناقد ل•أ• يودكين بما يلى : ـ

« ... خلال موجات ثلاث ، من موجات الأدب الاسرائيلى ، فالخط الرئيسى فى الرواية الاسرائيلية المعاصرة يتحرك فى اتجاه البحث عن الحرية ••• (؟) انها ذلك الشىء •• غير المحدد •• غير الموصوف ، وغير المعلن عنه أيضا .. والذى بدلا من أن يريح بطل يهودا اميهاى ، فهو يسوقه الى الجنون .. ! أو الكف عن المطاردة فالرواية «ليس من الآن ، ليس من هنا» تعالج قضية بالغة الأهمية بالنسبة لليهود فى العالم .. وللاسرائيليين بشكل خاص.. وهى قضية العلاقة بألمانيا الغربية •• أو علاقة الاسرائيلى الذى وضع عنقه على مقصلة ألمانيا التى تحطمت •• ثم جاءت ألمانيا جديدة (ألمانيا الغربية) لكى تحل محلها •

ويواصل المعلق ل•أ• يودكين كلامه قائلا :ـ

« ... ولعل هذه الرواية لاميهاى ، هى خير ما يعبر فنيا.. عن هذه العلاقة ••»

... ينتهى هنا كلام يودكين لكى تبدأ رواية اميهاى ..

«جويل» •• بطل «أميهاى» •• رجل ذو كيانين أو شخصيتين منفصلتين تماما •• ولقد أراد المؤلف أن يعطيه هذا الشكل المزدوج لكى يعطيه فرصة الحياة مرتين •• فيهودا اميهاى قد صمم شخصية جويل على هذا الاساس •• أن يقتل •• لكى يبعث مرة أخرى من جديد •• أى أن ينطلق (جويل الثانى) من جثة جويل الاول ليواصل مسيرته فى الحياة ••

(فجويل الاول) يقتل فى حادث انفجـــار لغم ٠٠ (لا يحدد المؤلف زمنا ولا مكانا للحادث ٠٠ وكأنه يريد أن يقول : ان الألغام بالنسبة لليهودى هى قدره ٠٠) ولكن جويل يقتل (فى اسرائيل)، يقتل لكى ينهض من جثته أو من أشـــلائه جويل الثانى ٠٠ اللغم بالطبع لغم عربى ، والمقتول هو بالطبع أيضا «جويل الاسرائيلى»٠٠ وهنا تبدأ فى أعقاب انفجار اللغم فى الأرض المحتــلة ، مسئولية « جويل الثانى » الذى ترك نصفه الأول مدفونا تحت التراب فى اسرائيل) وانطلق بنصفه الباقى الى المانيا الغربية الى مدينــة (وينبرج) لكى يبحث عن مضطهد صديقته أو حبيبته (روث) ، عن ذلك المضطهد الألمانى النازى ٠٠

لقد بدأ «جويل» البحث اذن عن المضطهد ، بدأت عملية صيد القاتل ٠٠ ان جويل يبحث عنه فى كل الشوارع الأمامية والخلفية٠٠ فى الحـانات ٠٠ وفى قوائم المطلوبين للبوليس والمعلقة أمام مراكز الشرطة ٠٠ فى واجهات المتاجر ٠٠ حيث تعرض شخوص من الشمع تشـــبه «المانيكانات» ٠٠ ولـكن جويل لا يعثر على عدوه أبدا ٠٠ ويهودا اميهاى بالطبع قد رسم لبطله جويل أسلوب البحث ووضع أمامه الخريطة ٠٠ ولكنه نسى ذلك الشىء الصغير ٠٠ أن يعطى لبطله اسم القاتل الذى يبحث عنه ٠٠ ! ٠٠ وللوهلة الأولى يخيل للقارىء ان المؤلف قد تعمد ان لا يعطى لبطله اسم مضطهد حبيبته وقاتلها٠٠ وتركه يبحث هكذا فى الشوارع ٠٠ لكى يوحى للقـــارىء أن كل ألمانى فى شوارع وينبرج هو المضطهد النازى القديم ٠٠ ولكن هذا الايحـــاء ما أسرع ما يتبدد حينما يعود جويل الى بيته ، ويدخل الحمام ٠٠ فاذا به يفاجىء برجل تحت «الدوش» فى البانيو ٠٠ وقد غطاه الصابون ٠٠ وأخيرا يصرخ جويل :

ــ هو ذا أنت أخيرا ٠٠

لقد عثر جويل على القـــاتل أخيرا ، عثر عليه تحت الدوش

ورغوة الصـــابون تغطى وجهه وصدره وأطراف جسمه ٠٠ ويبدأ الصراع بين الرجلين ٠٠ بين الاسرائيـلى جويل ٠٠ وبين الالمـانى الغربى من مدينة «وينبرج» ولكن الصراع لا ينتهى الى نتيجة ، فكلما حاول جويل ، أن يمسك بالالمـانى انزلقت يداه عن جسمه الذى تغطيه رغوة الصابون ٠٠ وهكذا يختتم يهودا اميهـاى روايته ٠٠ وهكذا يقدم لنـا رؤيته عن العدو النـازى ، أو عن الألمانى الغربى الجديد الذى ورث الصليب المعقوف ٠

***

هذا النموذج من العمل الروائى عن العلاقة بين اسرائيل وبين المانيا الغربية ، لا تحتاج الى شرح ولا تفصيل ٠٠ فالعلاقة واضحة تماما ٠٠ بين رغوة الصابون وبين جويل ٠٠ وعبث الصراع بين رجل يغطيه الصابون ولا تستطيع أن تمسك به ٠٠ لا يحتاج الى تعليق وكأن يهودا اميهاى أراد أن يقول : لا فائدة ترجى من الصراع ومن استرجاع الماضى ، ومن الانتقام أو حتى من الذكرى أو الصراع ضد الصليب المعقوف الجديد الذى يرتفع فى ساريته ضد المانيا الغربية ، وكأنه يريد أن يقول أيضا ٠٠ وقد جعل بطله « جويل » يعثر على عدوه الذى يبحث عنه ، وتحت الدوش وفى حمام بيته ، كأنه أراد أن يقول : ان التطهير قد تم ٠٠ بالماء والصابون ٠٠ وأن الألمانى الغربى الجديد قد اغتسل ٠٠ وطهر نفسه من كل أدران النازية القديمة ٠٠ وان اسرائيل تستطيع الآن أن تصافح بلا قفاز فى اليد ٠٠ يد المانيا الغربية المغسولة من الدم ٠٠ واعتقد أن هذا هو قمة الصفاء الروحى ٠٠ ! وذروة النضوج الفكرى وأعلى أشكال التكنيك للعلاقة بين (اسرائيل) والمانيا الغربية ٠٠ كما قال الناقد (ل ٠ أ ٠ يودكين) وهو يقدمها لقراء الجويش كرونيكل ٠

الجزء الثالث

"١" الأكروفايل ..

للروائي يورام كانيوك

... اذا كانت الشـــخصية الاسرائيلية تبحث عن ذاتها ، فلا تجد هذه الذات الا فى الحرب والجنس (دانيال كالنسكى ـ يائيل دايان) ، واذا كانت تلك الشخصية تبحث عن الانتقام ، فلا تجد القـاتل الذى تبحث عنه الا فى الحمـام ... فى ذلك البانيو وتحت الدوش وقد غطت رغوة الصابون أطراف جسـده (جويل ـ يهودا اميهاى) ، فان تلك الشخصية التى تبحث عن تبرير لوجودها ، غير تبريرات السلاح وتعاليم الحرب ، لا تتسم فقط بالعدمية واللاجدوى من الصراع بل يحفر الضياع فوق وجهها تلك الأخاديد العميقة ، وكان سكين محراث كبير قد جرت فوق الوجه ، ونحن من الممكن ان نحس بضياع رجل فى مدينة لا ينتمى اليها سياسيا أو روحيا أو وجدانيا ، ويمكننا ايضا ان ندرك أنه ذلك الضياع غير المصنوع وغير المفتعل، ولكن هل من الممكن أن نحس وان ندرك ضياع بطل (الاكروفايل) للروائى الاسرائيلى (يورام

كانيوك) وهو يهبط لأول مرة فى مطار نيويورك .. المدينة التى غالبيتها من اليهود ، والتى هى احد مراكز النشـــاطات الروحية والادبية والسياسية للحركة الصهيونية العالمية ...

... ان (بطل الاكروفايل الاسرائيلى) يصرخ بأعلى صوته وهو يواجه المدينة الكبيرة ذات ناطحات السحاب .

ـ انها تبتلعنى ...

... ويمضى بطل يورام كانيوك باحثا عن فرديته ... ولكنه لا يعثر على هذه الفردية ابدا فى شوارع نيويورك ، فهو يحس انه يوشك ان يسقط تحت عجلات العربات ، أو تحرقه وتحيله الى رماد اضواء النيون التى تهدر كالشلالات من واجهات المحلات التجارية الكبرى ، وكأن اضواء النيون قد تحولت الى صاعقة ، أو ما يشبه عاصفة البرق ... وتواصل شخصية الاكروفايل مســـيرتها فى الشوارع الكبيرة ، فيحس (البطل) ان الشوارع قد هندست لكى تقاتل ضده شخصيا ، ولكى تتحدى فرديته ...

وخلال حوار طويل مع النفس تتضح رويدا رويدا شخصية بطل (الاوكرافايل) ، فهو ليس من قراء قصيدة الارض الخراب للشاعر ت . س . لليوب وهو يعلن هذا من وراء مكبر صـــوت قد علق فى داخله ... وامتد سلكه وشق الجلد ... وهو ايضـا ليس من انصار العودة الى احضـــان الطبيعة والى الارض ، وهو لا يريد ان يتناقض مع نفسه ، فهو لم يحس فى يوم من الايام بأى تعاطف مع الطبيعة ، ولم يفرط طول حياته حفنة من التراب فلقد الف الجدران الحجرية وترعرع خلفها ، وكان يشعر على الدوام ، ان جدار الحجر هو صديقه الوحيد ، وأنه يحس بالطمأنينة مادام يحتمى خلف هذا الجدار أو ذاك ، أما الارض المفتوحة فهى مصدر فزع دائم لبطل الاكروفايل .. ففوق الأرض المفتوحة يكمن الخطر ،

ومن الممكن أن ينقض عليه الأعداء ، ثم انه لا يشعر بأى لون من ألوان العاطفة تجاه (الارض) فهى لم تكن يوما صديقته وبالتالى لن تقوم بحمايته ٠٠٠

٠٠٠ ويمضى بطل الاكروفايل محاورا نفسه ، ما الذى يريده اذن ٠٠٠ وبالطبع فلقد اعـد له المـؤلف الجواب ، جهز له (يورام كانيوك) ما يجب ان يقوله ، وكأنه فى مؤتمر صحفى ٠٠ والجواب الذى قدمه يورام كانيوك كأحد ملقنى المسرح لشخصيته الرئيسية فى رواية الاكروفايل وفى شكل حوار أيضا ٠٠٠

ـ اذا كانت نيويورك ستبتلعك ٠٠ فلن تكون أكثر من الحوت الذى ابتلع يونس ـ وعلى بطل الاكروفايل ان يقاتل ـ من الداخل ـ ان يقاتل وهو فى بطن الحوت ، من أجل ان يوجه الحوت كما توجه السفينة الى شواطىء (اسرائيل ـ فلسطين المحتلة) حيث سيلفظه على شاطئها ٠٠ وحيث ستغطى جسده العريان أوراق جواز السفر الاسرائيلى ٠٠

.. هذا هو الحل الذى يقدمه يورام كانيوك لشخصيته فى رواية الاكروفايل ٠٠ كحل لأزمة الضـيـاع التى تهدد وجوده ٠٠

وحتى حينما يحاول (يهود نيويورك) أن يقدموا له يد العون فهو يرفض تلك اليد ٠٠ بل يخاف أن يمد يده ويصافح الايدى التى تمتد له ، فمادامت هذه الايدى تقيم فى نيويورك فهى تلك الايدى البرصاء ، فالبرص بالنسبة لشخصية الاكروفايل سـيظل يلطخ ايدى اليهود ، حتى يتم غسـل تلك الايدى فى مياه نهر الاردن ٠٠ ؟ وينهى يورام كانيوك روايته القصيرة ، حينما يقف بطله فى وسط الشارع رافعا يده بدل رجل المرور ٠٠ وهو يصرخ فى المارة وفى النساء والرجال داخل العربات ٠٠٠

ـ الى الشاطىء قبل ان يبتلعكم الطوفان ٠٠٠
حيث ينتظركم الحوت ٠٠٠

«٢» المذكرة ..

للروائي أهارون ميجيد

... اذا كان يورام كانيوك قد قدم « الحوت » كحل لمأساة ضياع بطله فى (الاكروفايل) ، وقدم أوراق جواز السفر الاسرائيلى كالكساء الوحيد لعريه ... ، فالروائى الاسرائيلى (أهارون ميجيد) يقوم هو الآخر بمواجهة مشكلة الضياع والتمزق بالنسبة لليهودى المعاصر ويقوم بتقديم المصل الواقى ضد وباء الضياع فى قصته الطويلة التى تحمل اسم « المذكرة » .

... وفى المذكرة يستخدم المؤلف اسماء غير عبرانية ـ فكل الاسماء من البديش ، وهى المرحلة ـ فى نظر المؤلف ـ التى سبقت مرحلة التواجد اليهودى (فى اسرائيل ـ فلسطين المحتلة) ، والمذكرة تجسد الصراع بين جيلين من أجيال اليهود ، الصراع بين الجد اليهودى العجوز (زسكيند) وبين حفيده الذى يحمل اسم (رباح) وهو اسم عبرانى ، والصراع منذ بدء القصة يتجسد فى رفض

الجد اليهودى العجوز للاسم الذى يحمله حفيده ، ويصر الجد على ان يغير الحفيد اسمه من (رباح) الى (مندل) وهو اسم ولده الذى قتله الالمان فى اكرانيا ، خلال الغزو النازى للاتحاد السوفيتى ، فالجد يريد ان يحتفظ باسم مندل فى العائلة ويخشى ان يموت قبل أن يصبح الرباح ولدا يحمل اسم الأب .

فالجد يعيش فى اغوار الماضى السحيق ، كما صوره المؤلف ، يصطلى رماد جلده ورماد عظامه ، ويريد ان يقضى بقية أيام شيخوخته فى أمان وسلام ، فهو لا يفكر فى الرحيل الى اسرائيل ، كما فعل حاييم كالنسكى ـ أحد شخصيات يائيل دايان فى (ولدان للموت) ومن أجل هذا الرفض يصفه حفيده رباح بأنه لا يحمل حتى وجدان وضمير الفيل الذى حينما يحس باقتراب أجله ، ويدنو شبح الموت منه ، يرحل الى مقبرة الفيلة حيث يبرك على الأرض .. ويموت الى جانب أفراد القبيلة ..

... وحينما يتزوج (رباح) الحفيد وينجب ولدا ، وكان عليه ان يسميه ، يصبح الاسم ، هو بداية الصراع بين الجد وبين الحفيد الاب ، فالحفيد وقد أصبح أبا . قد اختار لولده اسم (أهود) والجد يصر على أن يحمـــل اسم (منـــدل) ومن أجل هذا فالجد لا يعترف بولد حفيده .. ويعتبره ابنا غير شرعى ، أحد اللقطاء الذين جلبهم حفيده من الشارع الى البيت .

... ونتيجة لشيخوخته ولانهزامه فى المعركة التى خاضهـا ضد حفيده .. يواصل الجد (زسكيند) نواحه على ولده مندل ... لاعنا الحفيد ولاعنا ولده ...

... وقد يبدو للوهلة الاولى ان الصراع حول هذا الاسم أو ذاك أصغر من أن تتسع له أوراق قصة طويلة .. ولكن رباح قحم هذه القضية حينما يقول وهو يحاور جده ...

ـ ولكننا عشنا باسماء مستعارة ··· ولجلود مستعارة طول الوقت ·· انك لا يمكنك ان تفهم ماذا يعنيه اسم (أهود) بالنسبة لى ·· انه يعنى ذلك الشيء الذى لن تدركه ابدا ·· وهذا الشيء باختصار هو أننى أرفض أسلوب حياة الدياسبورا الجـديدة ، أرفض لغة البديش وأرفض ثقافتها أيضا .. ومادمت متمسكا بأسلوب تلك الحياة ··· فاننى ارفضك أيضا ··· بل نحن جميعا نرفضك ···

ان الحفيد اليهودى يرفض الجد اليهودى ، ويرفض أسـلوب الحياة القديمة لليهود ماداموا يمارســون هذه الحياة فوق أرض غريبة ، والارض الغريبة بالنسبة للروائى الاسرائيلى أهارون ميجيد هى أية أرض خارج اسرائيل (فلسطين المحتلة) ·

··· وكما دخلت الرواية الاسرائيليـــة معترك العلاقة بين (اسرائيل) والنازيين القدامى والجدد ، وقدمت الصليب المعقوف للقارىء الاسرائيلى ، وقد تم غسله من شوائب وادران النازية ، فالرواية الاسرائيلية تدخل معترك الصراع بين الأجيال اليهودية ·· منتصف مايو (ايار) ١٩٤٨ ··· فهى تدخل الى حلبة الصراع والى جانب الجيل الذى ولد وترعرع فى أعقاب اغتصاب فلسطين فى بكامل اسلحتها ··· والى أقصى ما يمكن ان يصل التهديد والارهاب .. وعلى المستويين الفكرى والروحى ، والى تلك الدرجة التى فيها الحفيد (رباح) يرفض جده ... بل ويطرده من حظيرة (اسرائيل).

٣ العالم السحري لساره دينجي

للروائية روث رازيل

•• الشخصية الاسرائيلية ، التى رأيناها تتحرك فى « ولدان الموت » وفى «ليس من الآن ، ليس من هنا» ، وفى «الاكروفايل» •• والتى تكرس فى خطوطها الرئيسية ،الجيل الاسرائيلى الذى ولد فى أعقاب الكارثة عام ١٩٤٨ ، وأصبح بحكم قوانين الغصب والجريمة موجودا ، فوق أرض فلسطين المحتلة التى قالوا له : انها أرض الميعاد •• ! هذا المولود بالاسلوب الاصطناعى والذى واجهنا وواجهناه وهو فى العشرين من عمره •• أو فى الثانية والعشرين •• ما الذى كان يتثقف به •• ؟ •• وما الذى كان يقرؤه •• وما الذى كان يحشو رأسه وقلبه وروحه وهو لا يزال طفـــلا فى الخامسة أو السادسة •• ؟

ان مسئوليتنا فى اتجاه معرفة العدو ، تقتضى منا بذل أقصى ما فى الطاقة ، واستخدام كل ما تستطيع أن تصل اليه امكانياتنا

من أجل ان نلم ـ ولو فى الخطوط الرئيسية والاتجاهات العامة ـ اذا أعوزنا التفصيل ـ بذلك الشيء الذى اسمه « أدب الاطفال فى اسرائيل » (فلسطين المحتلة) أو « أدب الحلوى المسمومة » التى خلطتها المؤسسة الثقافية الاسرائيلية بكل تراب وحصى الحقد والكراهية والعنصرية ..

.. وهذه القصة من قصص الاطفال الاسرائيليين ، بعنوان « العالم السحرى ـ لساره وبنجى » ، للكاتبة الاسرائيلية (روث رازبل) هى نموذج للقصة التى تجعل الحقد منذ السنوات الاولى للطفل تجعله يطفح كالبثور فوق الجلد .. ويحيل الكراهية الى خبز يومى ...

فالقصة بطلها طفلان ، ساره وبنجى ، سارة فى الحادية عشرة من عمرها ، وبنجى فى الثامنة ، وكان لسارة ذلك الولع الشديد بقصص الثوار .. وما أكثر ما كانت تقوم بدور (استير) أمام المرآة .. استير الملكة التى أنقذت شعبها اليهودى .. أما بنجى فقد كان شديد الولع بتمثيل ادوار طرزان .. أو شمشون .. أو موشى دايان .. ! أما والد الطفلين فلقد كان طيارا فى شركة « العال » الاسرائيلية .. وقبل أن يصبح طيارا مدنيا ، كان يقود طائرة حربية (فى حرب الاستقلال الوطنية) .. (كذا) .. (فهكذا تسمى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية حربها العدوانية العنصرية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ..)

.. وفى المرة الأولى التى أصبح فيها الأب طيارا .. ، وكان عليه أن يقوم بتدشين طائرته .. اصطحب طفليه سارة وبنجى ، لكى يشاهدوه وهو ينطلق لأول مرة على طائرة من مدينة فى أول رحلة له من مطار لندن حتى مطار تل أبيب .

.. وخلف الواجهة الزجاجية للمطار ، كانت سارة وبنجى

يرقبان المسافرين وهم ينطلقون فى طابور ، وحقائبهم الصغيرة فى أيديهم •• الى الطائرة الجاثمة كاليمامة البيضاء فوق أرض مطار لندن •• !

وفجأة بدأ الساحر لعبته •• اللعبة التى هى العالم السحرى لسارة وبنجى •• وحدق الطفلان فى عينى بعضهما البعض ••واحسا ان تيارا كهربيا قد أخذ يسرى فى عروقهما •• وحينما أخذت الطائرة النفاثة تتحرك بعجلاتها فوق الارض •• شعر الطفلان ان حبلا من الرعد قد ضربه الزلزال ، وان صخوره قد راحت تتدحرج فوق أرض المطار محدثة ذلك الدوى العنيف الذى يصم الآذان •• ولم تملك روثى غير أن تغطى وجهها بيديها وحذا بنجى حذوها .. وحينما ازاح الطفلان أيديهما عن عيونهما ، وجدا أنفسهما وهما يجلسان على مقعدين متجاورين فى طائرة والدهما .. التى كانت تحلق فوق السحب •• ومن نافذة الطائرة ، كان الطفلان يرنوان الى برج ايفل وهو يتوهج تحت أشعة الشمس .. لقد كانا فوق باريس .. وحينما نظرا للمرة الثانية كانا يرنوان الى أطلال روما القديمة .

وفجأة بدأت الكارثة •••

شعر الطفلان ـ سارة واخوها بنجى ـ ان شبحا اسود يتحرك خلفهما وان ظله يسقط على ظهريهما •• ثم يتقدم الشبح الأسود لكى يلقى بظله فوق وجهيهما ..

ويرتفع صوت الشبح •• وهو يسدد مسدسه الى الطفلين :

ـ افعلا كل ما اطلبه منكما •• أو ساطلق الرصاص •• انهضا الآن •••

••• وينهض الطفلان •• ويرتفع صوت الشبح ثانية :

ـ والآن •• اتجها أمامى الى حجرة القيـــادة •• واطلبا من والدكما أن يبدل خط سير الطائرة •• من تل أبيب الى هافانا •

••• ولمعت فى ذهن بنجى فكرة •• وهو يرى الركاب وقـد تجمدوا من الرعب ، وقد عقد الفزع ألسنتهم .. ولكن الطفل حينما واجه أباه .. قال له بهدوء كل ما طلبه الشبح منهما .. وفى نهاية كلامه استخدم تلك الكلمات السرية باللغة العبرية .. والتى اتفقت عليها الأسرة في حالة الطوارىء .. وهى عبـــارة « .. ان الشمس تغرب .. ! » .

وفجأة •• انحنت سارة وشدت الشبح من ساقه بأسلوب (الجودو) ! وحينما تخلخل توازن الشبح انقض الأب الطيـار عليه والقاه أرضا وانتزع مسدسه •• وهنا تحرك طاقم الطائـرة وأتم عملية تكبيل يدى الشبح وقدميه •••

.. وتفتح سارة عينيها .. وفجأة ينتهى العالم السحرى •• وعالم الشبح •• فاذا بسارة لا تزال تقف هى واخوها بنجى خلف الواجهة الزجاجية لمطار لندن •• ووالدهما الطيار يلوح لهما بيده •• وهو يصعد سلم الطائرة ••

هذا ما يثقف به الطفل الاسرائيلى، أن يمارس الجودو ، وهو فى الثامنة أو الحادية عشرة .. ، وأن يتعلم الكلمات والرموز السرية وأن يكون نموذجه الاعلى فى الحياة هو طرزان ، أو شمشون ، أو موشى دايان •• وهذا هو العالم السحرى للاطفال الاسرائيليين •• ولا يحتاج الشبح الاسود بالطبع الى أى تعليق ، الشبح الذى يهدد

الاطفال •• ويريد تغيير خط سير الطائرة الاسرائيلية الى هافانا بدل تل أبيب •••

فالمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ـ التى هى (رمز الطائرة الخفى) قد حددت خط سيرها العدوانى .. وهى لن تغير هذا الاتجاه مختارة أبدا .. وهافانا ، العاصمة الكوبية ليست هنا غير رمز ايضا .. للعاصمة الاشتراكية التى يثقف بها الأطفـــال الاسرائيليون ، وهم لم يخرجوا بعد من أقساطهم ، ضدها .

خاتمة

.. أخشى ما يخشاه الذى يقدم للنماذج الاسرائيلية الروائية المعاصرة .. وهى تتخبط فى العوالم المغلفة موضوعيا ـ والمفتوحة فى أعلى أشكالها الاصطناعية الكاريكاتورية ، أن يخرج المثقف الناقد أو القارىء العادى بنتيجة السقوط التلقائى لتلك النماذج ـ فى واقع العمل الفنى وفى غمرات الحياة اليومية أيضا ، وبالتالى ينطلق فى اتجاه أن هذه الشخصيات التى تحكمها قوانين العدمية والضياع ، أو شرائع الابتزاز العنصرى ، أو تركيز كاميرا الصهيونية العالمية على وجوه ، حتى اليهود الذين يرفضون الانضواء تحت ذلك اللواء الأسود ـ ليس أمامها غير طريقين لا ثالث لهما .. اما الموت العفوى .. أو الموت بطعنة ابرة .. أو الاحتراق بعود ثقاب ، أو أن تجد مخرجا لضياعها وعذابها فى الاتجاه نحو خنادق القضية الوطنية الفلسطينية ..

.. وأنا لا أقطع بحتمية دوران تلك الشخصيات فى اطار ذاتها أو فى اطار المؤسسة العسكرية الاسرائيلية التى تنسج خلاياها .. فأنا أعتقد أن حركة المقاومة العربية الفلسطينية المسلحة

.. فى التقييم النهائى - هى التى ستخلص اليهود أنفسهم - فى داخل اسرائيل (فلسطين المحتله) من براثن المؤسسه العسكرية ومن اكتساحها لأرواحهم ، واغراق تلك الأرواح فى الدم .. ولكن فى الوقت نفسه أرى ان هذا الخلاص لليهود انفسهم - لن يجىء مبكرا .. لا تزال تلك النطفة فى رحم المقاومة - لو صح التعبير .. ولكننى فى الوقت نفسه ، وعلى ضوء كل ما تمارسه المؤسسة العسكرية فى اسرائيل ، مما يتفرع عنها من المؤسسات الاعلامية الثقافية ، ومن أجهزة الارهاب الفكرى والادبى فى أعلى صوره وأشكاله .. لا أتصور أبدا انه يمكن كسب بندقية المحارب الاسرائيلى الى خنادق المقاومة المسلحة مدفوعين انى هذا بأى نازع من نوازع الطوباوية الأممية .. أو أن البشر فى نهاية المطاف سيضمهم فيلق بشرى واحد .. اذ أن أشد ما يمكن أن تبتلى به أية حركة ادبية وفنية - وفى مجال المقاومة والصراع مع العدو - هو أن تحاول أن تخضع مقتضيات النضال ضد ذلك العدو ، ولأسباب دعائية عالمية ، بمعنى أن نحاول الظهور أمام العالم بأننا مفتوحون عليه الى تلك الدرجة التى نقول فيها للعالم :

- انظر فها هو ضابط اسرائيلى أيضا يتمرد ويرفض تنفيذ أوامر القصف والقتل الفردى والجماعى ...

مثل هذا التصور الطوباوى الاممي - فى تقديرى - لن يحدث وليس معنى هذا أن حدوثه مرفوض ، أو انه محكوم عليه بقوانين خارقة بأن لا يحدث ، ولكن وفى كلمة ، لن يحدث التمرد من داخل المؤسسة العسكرية لأن الظروف أمام الموضوعية التى تدفعه للحدوث لم تنضج ولم تكتمل .. ، وهى لن تنضج على « البوتاغاز » ، ولا فى حلة « بريستو » وهى لن تنضج أيضا على لهيب نيران تصوراتنا أو

تخيلاتنا الفردية .. ولكنها ستنضج على لهب ضربة استراتيجية قاصمة للعمود الفقرى للعدو ٠٠ فالمقاومة لن تســـتطيع تخليص اليهود من مصيدة المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، الا بانهاء تلك المؤسسة القائمة على العنصرية ، والتى وضعت النســـونكى بدل (الابرة) فوق تلك الاسطوانة التى تدور وتنطلق منها كل مكبرات صوت الحقد والكراهية ٠٠ والشوفينية العنصرية فى أعلى صـــورها وأشكالها ٠

فهرس



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

الثمن ٢٠ قرشًا